قصة من العصر الحجري

تأليف
هربرت جورج ويلز

ترجمة
زينب عاطف

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

المحتويات

قصة من العصر الحجري ٧

قصة من العصر الحجري

(١) أوج-لومي وأويا

هذه القصة عن زمنٍ سبق ذاكرةَ الإنسان، قبل بداية التاريخ، زمن كان يسير فيه المرء حافيَ القدمَين، من فرنسا (كما نُطلق عليها الآن) إلى إنجلترا، زمن كان يتدفَّق فيه نهر التيمز الواسع والبطيء الحركة عبر مستنقعاته ليَلتقيَ بوالِده نهرِ الراين، ويتدفَّق عبر أراضٍ واسعة ومُستويَة اختفَت الآن تحت سطح الماء، ونَعرِفها باسم بحر الشَّمال. في هذا العصر السحيق لم يكن الوادي الذي يمتدُّ على طول سفح الداونز موجودًا، وكان جنوب سَرِي مجموعةً من التلال، المكسوَّة بأشجار التنُّوب في المُنحدَرات الوسطى، المُغطَّاة قِمَمها بالجليد في مُعظم أوقات السنة. وما تزال قِمَمها المركَزية باقية حتى الآن وتتمثَّل في تل ليث هيل وبيتش هيل وهيندهيد. وعلى المُنحدَرات الأدنى في مجموعة التلال، والتي تقع أسفل المساحات العُشبية حيث ترعى الخيول البرية، كانت ثمَّة غابات من شجر الطقسوس والكَستناء الحُلو والدَّردار، وكانت الأجَمات الكثيفة والأماكن المُظلِمة تُخفي دِبَبةً شَهباء وضِباعًا، وكانت القِرَدة الرَّمادية تَتسلَّق عبر فروع الأشجار. وفي الأماكن الأكثر انخفاضًا وسط الغابات والمُستنقَعات والأماكن العُشبية المفتوحة على امتداد نهر وي وقعَت أحداث هذه الدِّراما القصيرة التي سأَسردها حتى النهاية. حدَثَ هذا منذ خمسين ألف سنة، خمسين ألف سنة إذا كانت تقديراتُ الجيولوجيين صحيحة.

في هذه الأيام كان وقتُ الربيع وقتًا مُبهِجًا تمامًا كما هو الآن، وكان يجعل الدم يتدفَّق في العروق تمامًا كما يَفعل الآن. كانت السماء في فترة بعد الظهيرة زرقاء تُبْحِر فيها مجموعات من السُّحُب البيضاء، والرياح الجنوبية الغربية تهبُّ بلُطف ورقَّة. وكانت طُيور السنونو الصغيرة تَطير ذهابًا وإيابًا. وكانت حدود النهر مرصَّعة بزهور الحوذان

البيضاء، وكانت الأراضي السبِخة تتألَّق بنبات الْحُرف الْمَرْجي، وتُضيئها أزهار الخَطْمية أينما خفضت أفواج السَّعديات سيوفها، وكانت أفراس النهر المتَّجهة نحو الشمال، هذه الوحوش السوداء اللامعة، تلعَب بطريقة خرقاء، وتتخبَّط وترنَّح عبر النهر، وهي مُبتهجة بهجةً بالغةً، ولا تتملَّكها إلا فكرة واحدة واضحة، أن تُعكِّر صفوَ مياه النهر.

أعلى النهر، وعلى مرأًى مِن أفراس النهر، تلعب مجموعة من الحيوانات الصغيرة العارية في الماء. لم يَكُن يوجد خوفٌ أو تنافُس أو عداءٌ بينها وبين أفراس النهر. ومع اندفاع هذه الوحوش الضخمة عبر البُوص محطِّمةً صفحة المياه وناشرةً الرذاذ الفِضِّي، كانت هذه الكائنات الصَّغيرة تتصايَح وتَصرُخ وتُومئ في مرح. كانت هذه علامةً أكيدةً على قُدوم الربيع السعيد. علَت أصوات الصياح: «بولووو! باياه، بولووو!» كان هؤلاء أطفال البشَر، الذين يتَصاعد الدخَان من مخيَّماتهم على الهضْبة الصغيرة عند مُنعطَف النهر. كانت نظراتهم جامحةً، وشُعورهم شعثاءَ، ووجوههم شيطانية صغيرة بأُنوف عريضة مُغطَّاة (كحال بعض الأطفال حتى في عصرنا الحالي) بقليلٍ مِن الشعر المُنسدِل عليها. كانت خُصورُهم هزيلةً وأذرُعُهم طويلة. ولم تكن لديهم شحمات في آذانهم، وكانت أطرافُهم مدبَّبة قليلًا، وهو شكل يوجد حتى الآن، في حالات نادرة. كانوا غجَرًا صِغارًا عارِين تمامًا ومُفعَمين بالحيوية، في نشاط القِرَدة الكثيرة الثرثرة، رغم افتقارهم إلى الكلمات نوعًا ما.

كان ذووهم الأكبر سنًّا مُختبئين مِن أفراس النهر المُتخبِّطة عند قمة الهضْبة. وكان مكان معيشة البشر مِنطقةً مُغطَّاةً بأوراق نبات السَّرخس الملكي الميِّتة البُنِّية اللون، ينتشر فيها محصول هذا العام من النباتات المُلتوية الأوراق لتَربط الضوء بالدفء. وكانت النِّيران تتصاعَد من كومة من الفحم، لونُه رَماديٌّ فاتح وأسود فاتح، وكانت العجائز يُزوِّدْنها من حينٍ لآخر بأوراق الشجر البُنِّية اللون. كان معظم الرجال نائمين؛ إذ ناموا جالسين واضِعين جباههم فوق رُكَبهم. فقد حصَلوا هذا الصباح على طريدة جيِّدة، تكفي الجميع؛ غزالٍ أُصيب في عراكٍ في موسم التزاوج؛ ومن ثم لم يحدث أيُّ شجار بينهم، حتى إن بعض النساء ما زلن يَقضمْن اللحم العالق في العظام المُبعثَرة في كل مكان، بينما كانت أخريات يصنعن كومة من أوراق الشجر والعِصيِّ من أجل تغذية «النار الشقيقة» عندما يحلُّ الظلام مرةً أخرى، حتى تُصبِح أقوى وأطول وتحميهم من الوحوش. وكانت اثنتان تُكدِّسان حجر الصوَّان الذي تَحملانه من مُنعطَف النهر حيث كان الأطفال يَلعبون على ذراعَيهما.

لم يكن أيٌّ من هؤلاء الهمَج الشاحبين يَرتدي أيَّ ملابس، فيما عدا ارتداء البعض على خصورهم أحزمةً بُدائية مصنوعة من جلد الأفاعي أو من بقايا جلد الحيوانات غير المُكتمِل المعالجة، تدلَّت منها حقائب صغيرة، ليست مصنوعة بل مزَّقتها مخالب الحيوانات، وتَحمل حجر الصوَّان المهذَّب ببُدائية والذي كان يُمثِّل أسلحة البشر وأدواتهم الأساسية. كانت سيدة واحدة، زوجة أويا، «الرجل الماكر»، تَرتدي عِقدًا رائعًا مصنوعًا من الحفريات المثقوبة — ارتداه غيرها من قبل. وبجوار بعض الرجال النائمين ثمَّة قرون ضخمة للأيائل، نُحتَت أشواكُها لتُصبح ذات حواف حادة، وعِصيٌّ طويلة قُطعت أطرافها بحجر الصوَّان لتُصبح حادَّة مُدبَّبة. لم يكن يوجد أكثر من هذه الأشياء والنار الخفيفة المُشتعلَة لتُميِّز البشر عن الحيوانات البرية التي كانت تجوب البلدة. إلا أن أويا «الماكر» لم يَنم، بل جلس مُمسكًا بعظمة في يده انهمَك في كشطها بحجر صوَّان، وهو أمر لم يكن ليفعله أيُّ حيوان. كان أكبر الرجال سنًّا في القبيلة، وكان كثيف الحاجبَين بارزَ الفكَّين طويل الذراعَين، لديه لِحية، ووَجْنتاه مكسوَّتان بالشَّعر، وكان كثيف شَعر الصدر والذراعَين. وبفضل كلٍّ من قوَّته ومكره أصبح زعيمًا للقبيلة، وكانت حصَّته دائمًا الأكبر والأفضل.

كانت أودينا مُختبئة بين أشجار جار الماء؛ لأنها كانت خائفة من أويا. كانت لا تزال فتاةً يانعة، وكانت عيناها لامعتَين وابتسامتها تسرُّ مَن يراها. لقد أعطاها قطعةً من الكبد، وهي قطعة يَحصل عليها الرجال، وهدية رائعة لأيِّ فتاة، لكن عندما كانت تأخذُها نظرَت إليها السيدة الأخرى ذات العِقد، بنظرة شرِّيرة، وأصدر أوج-لومي صوتًا من حنجرته. عندها نظَر أويا إليه بثَبات ولفترة طويلة، وبدا التجهُّم على وجه أوج-لومي. ثم وجَّه أويا نظرَه إلى الفتاة، فأُصيبت بالخوف، وتسلَّلت خلسة بينما كانوا ما يزالون مُنهمكِين في تناول الطعام، وكان أويا مُنشغلًا بنُخاع عظْمة. بعد هذا راح يتجوَّل كما لو كان يبحث عنها. والآن هي جاثمة بين أشجار جار الماء، تتساءل جاهِدةً عما يفعله أويا بحجر الصوَّان والعظمة، ولم يكن أوج-لومي في مجال رؤيتها.

والآن جاء سنجابٌ يَقفز بين أشجار جار الماء، فجلسَت في هدوء بالغ، حتى إن الفتى لم يرَها إلا عندما أصبَح على بُعد ست أقدام منها. وعندئذٍ وطئ جذع شجرة وهو يُسرِع نحوها، وبدأ يُتمتِم بكلمات غير واضحة موبِّخًا إياها. سألها: «ماذا تفعلين هنا بعيدًا عن الرجال المُتوحِّشين الآخَرين؟» قالت أودينا: «فلْتهدأ.» لكن لم يكن منه إلا أن ازداد في التَّمتمَة، ثم بدأت في كسر حبات الصَّنَوْبر الصغيرة السوداء حتى تُلقيَها عليه. تفاداها وتحدَّاها، فاشتدَّ حماسها ووقفَت حتى ترميَ على نحوٍ أفضل، ثم رأت أويا قادمًا إلى أسفل الهضْبة. لقد رأى حركة ذراعها الشاحبَة اللون بين الأجمات؛ فقد كان حادَّ البصر للغاية.

عندها نسيَت أمر السنجاب، وانطلقَت بين أشجار جار الماء والبُوص بأسرع ما يُمكنها. لم تهتمَّ بالمكان الذي ستذهب إليه ما دامت ستَهرب من أويا. خاضت في مُستنقَع وصل فيه الماء إلى ركبتَيها تقريبًا، ورأت أمامها مُنحدَرًا من نبات السَّرخس، يزداد طولًا واخضرارًا مع تخطِّيه مِنطقة الضوء ودخوله في ظلِّ أشجار الكَستناء اليافعة. وسرعان ما أصبحت بين الأشجار؛ كانت سريعة جدًّا في العَدْو، واستمرَّت في العَدو حتى شاخت الغابة وزادت الأشجار ضخامة، وصارت جذوع أشجار الكروم — حيث يَصل الضوء — سميكةً مثل أشجار يافعة، وأضحَت خيوطُ اللبلاب قوية ومَتينة. استمرَّت في العَدو، ضاعفَت من سُرعتها مرارًا وتكرارًا، حتى استلقَت بين بعض نباتات السَّرخس في حفرة بالقرب من أجَمة، وأنصتَت وهي تسمع نبض قَلبِها في أذنيها.

سمعتْ وقع خطوات بعيدة تُصدر حفيفًا بين أوراق الشجر الميتة، ثم تلاشى الصوت وعاد كل شيء ساكنًا مرةً أخرى، باستثناء ما تُحدثه حشرات الذباب الأسود من ضجة — فقد كان المساء يَقترب — والهمس المُتواصِل لأوراق الشجر. ضَحكتْ في صمتٍ عندما فكَّرت في أن أويا الماكر سيمرُّ عليها دون ملاحظتها. لم تكن تَشعر بالخوف؛ ففي بعض الأحيان عندما كانت تلعب مع الفَتيات والصبية الآخرين كانت تَهرُب إلى داخل الغابة، إلا أنها لم تكن تبتعد على هذا النحو. كان من الممتع أن تَختبئ وحدها.

استلقَت لفترة طويلة في هذا المكان، سعيدة بهروبها، ثم جلست وأنصتَت.

كان ثَمَّة وقع أقدام يَتعالى صوتُه قادمٌ نحوها، وبعد فترة قصيرة استطاعَت سماع قِباع خنازير وصوت تَكسُّر غصون الأشجار. كان هذا قطيعًا من الخنازير البرية الهزيلة المريعة. استدارَت مُبتعدةً عن المكان — إذ من الممكن أن تؤذيك الخنازير البرية إذا مرَّت بالقرب منك بشدة على هذا النحو، بسبب الفتحة الجانبية التي تُخرِج منها أنيابها — وفرَّت بين الأشجار. إلا أن وَقع الأقدام ازداد قربًا، فلم تكن تتناول الطعام أثناء تجوُّلها هذا، بل كانت تتحرك بسرعة — وإلا ما كانت استطاعت اللحاق بها — فأمسكت بفرع شجرة كبير وتعلَّقت به مُتأرجحةً حتى صعدت على جذع الشجرة برشاقة تُشبه رشاقة القرد.

في الأسفل كانت ظهور الخنازير البرية ذات الشَّعر المُنتفِش الحاد تمر بالفعل عندما نظرت إلى الأسفل. وعلمت أن صوت القباع القصير الحاد الذي تُصدره يعني الخوف. لكن ما الذي تخاف منه؟ إنسان؟ لقد كانت سرعتها هائلة بما يوحي بأنها لا تهرب وحسب من إنسان.

ثم فجأة ظهر ظبي صغير وركَض خلف الخنازير البرية؛ مما جعلها تُحكم قبضتها على الفرع لا إراديًّا. ومرَّ شيء آخر، صغير رَمادي اللون وجسمه طويل؛ لم تعلم ما هذا، ففي الواقع لم تره إلا للحظة عبر الفجوات بين أوراق الأشجار الجديدة، ثم سكن كل شيء للحظات.

ظلت مُترقِّبة ومُحكِمة قبضتها على فرع الشجرة، ومتصلبة كما لو كانت جزءًا من الشجرة التي تتعلق بها، وهي تنظر إلى الأسفل.

ثم من بعيد بين الأشجار ظهر رجل يَعدو لبُرهة، ثم اختفى، ثم ظهر مُنغمسًا حتى ركبتيه بين السراخس، ثم اختفى مرةً أخرى. علمت أنه الصبي أوج-لومي من لون شَعرِه الأشقر، وكان ثمَّة لون أحمر على وجهه. بطريقةٍ ما جعَلها هروبه المذعور وهذه العلامة القرمزية تَشعُر بالغثَيان. ثم على مسافة أكثر قربًا ظهر رجل آخر يَعدو أيضًا بقوة ويتنفَّس بصعوبة. لم تَستطِع رؤيته في البداية، ثم رأته واضحًا وأقصر من الطبيعي، لقد كان أويا يَجري بخطوات واسعة وعيناه مُحدقتان. لم يكن يُلاحق أوج-لومي. إن وجهه أبيض اللَّون؛ كان أويا خائفًا! لقد مرَّ بالفعل، وكان صوته ما يزال عاليًا مُرتفعًا، عندما جاء شيء آخر، شيء ضخم ذو فرو رَمادي، يخطو بخُطًى سريعةٍ سَلِسة، مندفعًا يلاحقه.

تصلَّبت أودينا فجأة، وتوقَّفت عن التنفُّس، وتشنَّجت قبضتها، وحدَّقت بعينَيها.

فلم تكن قد رأت هذا الشيء من قبل، حتى إنها لم تَعُد تراه الآن بوضوح، لكنها علمت على الفور أنه «رعب الغابة». كان اسمه أسطورة، وكان الأطفال يُخيفون بعضهم — وحتى أنفسهم — باسمه، ويَركضون صارخين لمكان المعيشة. لم يَقتل إنسانٌ أيَّ مخلوق مثله من قبل. وحتى الماموث العظيم كان يَخشى غضبه. كان هذا هو الدُّب الأشهب، سيد العالم كما كان يُطلَق عليه آنذاك.

كان يُصدِر صوت زمجرة مستمرًّا في أثناء ركضه، كما لو أنه يقول: «الرجال في عَريني! عِراك ودماء. في قلب عَريني نفسه، رجال، رجال، رجال. عراك ودماء!» هذا لأنه كان سيد الغابة والكهوف.

بعد مُضي فترة طويلة على مروره ظلَّت الفتاة متحجِّرة، تُحدِّق إلى الأسفل عبر فروع الشجرة؛ فقد فقَدت كامل قُدرتها على فعل أي شيء، وتمسَّكت بالشجرة غريزيًّا بيدَيها وركبتَيها وقدمَيها. مرَّ بعض الوقت قبل أن تستطيع التفكير، ثم اتَّضح شيء واحد في ذهنها، أن هذا «الرعب» أصبح بينها وبين القبيلة، وسيكون من المُستحيل أن تنزل عن الشجرة.

والآن عندما قلَّ خوفها قليلًا تسلَّقت لوضعٍ أكثر راحة، إلى حيث فرع ضخم يُشبه الشوكة. كانت الأشجار مرتفعة من حولها، حتى إنها لم تستطع رؤية «النار الشقيقة» المُشتعلة التي كانت مُطفأة خلال اليوم. بدأت الطيور تتحرَّك من حولها، كما بدأت الأشياء التي اختبأت خوفًا من حركاتها بالزحف إلى الخارج …

بعد مُضيِّ بعض الوقت تحوَّل اللون الأزرق فوق رأسها إلى لونٍ داكن، وبدأت فروع الأشجار تبدو وكأنها تَشتعل ومِن ورائها الشفق الأحمر. وفي الأعلى ذهبت الغربان، التي كانت أكثر حكمةً من الإنسان، تَنعق ذاهبة إلى أعشاشها بين شجر الدَّردار. وعند النظر إلى الأسفل، كانت الأشياء أكثر وضوحًا وأكثر دُكنة. فكَّرت أودينا في العودة إلى مكان المعيشة، فنزلت إلى الأسفل بعض الشيء، ثم عاد إليها الخوف من «رُعب الغابة» مرةً أخرى. وبينما كانت مترِّددة أصدر أرنبٌ صرخة حادَّة كئيبة، فلم تَجرؤ على النزول أكثر.

انسدَلت أستار الظلام، وبدأ النشاط يدبُّ في أعماق الغابة. عادت أودينا إلى أعلى الشجرة مرةً أخرى حتى تكون أقرب إلى الضوء. وفي الأسفل خرَجَت الأشباح من مخابئها ومشَت إلى الخارج. وأصبَح لون السماء الأزرق أكثر إعتامًا. ساد سكونٌ مُخيف، ثم بدأ صوت حفيفِ أوراق الأشجار في التصاعُد.

رجفَت أودينا وفكَّرت في «النار الشقيقة».

تجمَّعت الآن الظلال في الأشجار، وجلسَت فوق فروعها وراقبَتها. تحوَّلت فروع الأشجار وأوراقُها إلى أشكالٍ سوداء ومشئومة قد تَهجُم عليها إذا تحرَّكت. ثم أتت البومة البيضاء، تحوم في صمت، كالطيف عبر الظلال. وعم الظلام العالم أكثر فأكثر، حتى أصبحَت الأوراق والغُصون بالقرب من السماء سوداء اللون، واختفت الأرض.

ظلَّت هناك طوال الليل، في مراقبة أبدية، مُنصتةً جيدًا بأذنَيها للأشياء التي تتحرك في الأسفل في الظلام، وتُحاول البقاء دون حركة حتى لا يَكتشف مكانها أحد الوحوش المُختبئة. فلم يكن المرء في تلك الأيام يبقى وحده قطُّ في الظلام، باستثناء مثل هذه الحالات النادرة. وعصرٌ بعد عصر تعلَّم الإنسان الدرس من خوفه، وهو درسٌ علينا نحن — سلالتَه المسكينة — نسيان تعلُّمه في العصر الحاليِّ على نحوٍ مؤلم. كانت أودينا فعليًّا مثل طفل صغير، رغم كونها في عمر امرأة. وقد ظلَّت ساكنة كحيوانٍ صغير مسكين، كأرنبٍ بريٍّ قبل مباغتته.

اجتمعت النجوم وراقبتها، وكانت هذه هي الذرة الوحيدة التي تُشعرها بالراحة. ففي واحدة لامعة منها تخيَّلت وجود شيء يُشبه أوج-لومي. ثم تخيَّلت أنه أوج-لومي، وبالقرب

منه، كان أويا، أحمر اللون وأكثر شحوبًا، ومع مرور الليل هرب أوج-لومي منه إلى أعلى السماء.

حاولت رؤية «النار الشقيقة»، التي تحمي مكان المعيشة من الوحوش، لكنها لم تكن في مرمى بصرها. ومن بعيد سمعت أفيال الماموث تُصدر أصواتًا من خراطيمها وهي تَنزل إلى مكان شُرب الماء، ثم سمعت شيئًا ضخمًا بخُطًى ثقيلة يركض مسرعًا، مُصدِرًا ضجة مثل عِجلٍ صغير، لكنها لم تستطع رؤية ماذا كان. لكنها ظنَّت من صوته أنه وحيد القرن «ياا»، الذي يَطعن بأنفه ويسير وحيدًا دائمًا ويَغضب دون سبب.

أخيرًا بدأت النجوم الصغيرة تَختبئ، ثم تبعتها الكبيرة. كان الأمر يشبه اختفاء جميع الحيوانات عند ظهور «الرعب». كانت الشمس آخذة في الظهور، وهي سيدة السماء، تمامًا مثل الدُّب الأشهب سيد الغابة. تساءلت أودينا: ماذا سيَحدث لو تخلف أحد النجوم؟ ثم شحب لون السماء حتى بزوغ الفجر.

عندما حلَّ الصباح تجاوَزت خوفها من الأشياء المُختبئة، واستطاعت النزول. كانت قوية، لكنها لم تكن بالقوة التي كنتِ ستُظهرينها، عزيزتي الشابة (بفضل نشأتكِ)، ونظرًا لأنها لم تتعود على تناول الطعام مرة واحدة على الأقل كل ثلاث ساعات، بل بدلًا من ذلك كانت دومًا ما تصوم ثلاثة أيام، لم يُؤرقها الشعور بالجوع. نزلت زاحفةً من الشجرة بحذر بالغ، ومضت في طريقها خلسةً عبر الغابة، ولم تُخِفْها قفزة أرنب ولا حركة غزال، بقدر ما جمَّد الرعب من الدُّب الأشهب الدِّماء في عروقها.

كانت تريد الآن العثور على قبيلتها مرةً أخرى؛ فقد غلب على خوفها من أويا «الماكر» رعبٌ أكبر هو رعبُها من الوحدة. لكنها لم تَعُد تعرف الطريق. فقد ركضت دون اكتراث طوال الليل، ولا يُمكنها تحديد ما إذا كان مكان المعيشة في اتجاه شروق الشمس أم من حيث تَغرب. كانت من وقت لآخر تقف وتسمع، وأخيرًا، من مكان بعيد للغاية، سمعت صوت رنين مُنتظم. كان صوتًا خافتًا للغاية حتى في سكون الصباح مما جعَلها تَستشِفُّ أنه لا بد أن يكون بعيدًا للغاية، لكنها كانت تعلم أنه صوت إنسان يَشحذ حجرَ صوَّان.

بدأت كثافة الأشجار تقلُّ الآن، ثم وجدت فوجًا من نبات القُرَّاص يسدُّ الطريق. فانعطفت جانبًا، ثم وصَلت إلى شجرة ساقطة على الأرض، كانت تُميِّزها بصوت النحل الذي يَصدُر منها. وعليه، أصبحَتِ الآن ترى الهضْبة، بعيدة للغاية، والنهر الذي يجري أسفلها، والأطفال وأفراس النهر، تمامًا كما كانوا أمس، والطرَف العلوي الرفيع من الدخَان يَتمايل في نسيم الصباح. وبعيدًا على ضفاف النهر كانت توجد مجموعة من أشجار جار

الماء، حيث كانت مختبئة. وعند رؤيتها لهذا عاد إليها الخوف من أويا، وزحفت إلى داخل أجَمة من نبات السَّرخس، ركض منها أرنب مُسرعًا، ومكثَت لفترة تُراقب مكان المعيشة.

غاب معظم الرجال عن الأنظار، عدا فاو، قاطع الصوَّان، ولهذا شعرت بأمان أكثر. لقد كانوا بعيدًا يَصطادون الطعام، دون شك. كانت بعض النساء أيضًا في مجرى النهر في الأسفل، وكن مُنحنِيات يبحثن عن بلح البحر وجراد البحر وحلزون الماء، وعندما رأت أودينا انشغالهنَّ شعرت بالجوع. وقفت وركضت عبر السَّرخس عازمةً على الانضمام إليهن. وفي أثناء ركضها سمعت صوتًا بين السَّرخس يُنادي عليها برقة، فتوقَّفت. ثم سمعت فجأة صوت حفيف خلفها، وعندما التفتت رأت أوج-لومي يظهر من بين السَّرخس. كانت ثمة خطوط من الدماء بُنِّية اللون والأتربة على وجهه، وكانت عيناه قاسيتَين، وكان حجر أويا الأبيض، «الحجر الناري» الأبيض الذي لم يَجرؤ أحدٌ على لمسه عدا أويا، في يده. أخذ خطوة فأصبح بجوارها وأمسك بذراعها. جعَلها تلتفت إلى الأمام ودفعها أمامه نحو الغابة. قال: «أويا.» ولوَّح بذراعَيه. سمعت صيحة ونظرت خلفها فرأت كل النساء منتصبات، واثنتَين تَخرُجان من الماء. ثم سمعت صرخة أقرب، وكانت السيدة العجوز ذات اللحية، التي كانت تُراقب النار على الهضْبة، تُلوِّح بذراعيها، ووقف فاو، الرجل الذي كان مُنهمكًا في تقطيع الصوَّان، على قدميه. كان الأطفال الصغار أيضًا يتحرَّكون مُسرعين ويَصيحون.

قال أوج-لومي: «تعالَيْ!» وجرَّها من ذراعها.

لم تكن تفهم حتى الآن.

قال أوج-لومي: «أويا.» فنظرت إلى الخلف مرةً أخرى إلى حشد الأشخاص الصارخين، وفهمت إلى حدٍّ ما.

كان فاو وجميع النساء والأطفال قادِمين نحوهما، مجموعة مُتفرِّقة من الأفراد العُراة ذوي الشعر الأشعث، يَنتحبون ويَقفزون ويصرخون. وفوق الهضْبة أسرع شابان، وفي الأسفل بين السراخس جهة اليمين جاء رجل، يُوجِّههما بعيدًا عن الغابة. ترك أوج-لومي ذراعها، وبدأ الاثنان يرَكضان جنبًا إلى جنب، يَقفزان على السراخس ويَخطوان خطوات واثقة وواسعة. ضحكت أودينا، التي كانت تعرف سرعتها وسرعة أوج-لومي، بصوتٍ عالٍ على المُطارَدة غير المتكافئة؛ فقد كانا سريعَين للغاية مقارنة بأترابهما في تلك الأيام.

سرعان ما ابتعدا عن المساحة المفتوحة، واقتربا من غابة أشجار الكَستَناء مرةً أخرى، ولم يكن أيٌّ منهما خائفًا الآن لأن كليهما لم يكن وحيدًا. خفَّفا من سرعتهما، التي لم تكن بالفعل زائدة عن الحد. وفجأةً صاحت أودينا وانحرَفت جانبًا وهي تُشير وتنظر عبر

جذوع الأشجار. رأى أوج-لومي أقدام وسيقان رجال يركضون نحوه. كانت أودينا قد هربَت بالفعل إلى الاتجاه المعاكس، وبينما استدار هو أيضًا ليلحق بها؛ سمعا صوت أويا قادمًا عبر الأشجار يُزمجِر غاضبًا منهما.

دبَّ الرعب في قلبَيهما، ليس الرعب الذي يُخدِّر، بل الرعب الذي يجعل المرء صامتًا وسريعًا. انفصلا الآن وأصبح كلٌّ منهما في جانب؛ فقد كانا في مطارَدة صعبة. فمن جهة اليمين، وبالقُرب منهما، جاء الرجال مُسرِعين وبأعداد كبيرة، يقودهم أويا الملتحي، وفي يده قرن أُيَّل؛ وفي جهة اليسار ظهَر فاو والنساء يَجرون متفرقين عبر السراخس والحشائش وكأنهم حبوب ذرة صفراء منثورة على الأرض، وحتى الأطفال الصغار اندفعوا من المياه الضحلة لينضمُّوا إلى المطارَدة. اقتربت المجموعتان منهما؛ فركَضا مُسرعَين، تتقدَّمُهما أودينا.

كانا يَعلمان أن أحدًا لن يَرحمهما، فلم يكن ثمة نوعٌ من الصيد أحبَّ إلى هؤلاء البشر القدماء من صيد البشر. فبمُجرَّد إشعال الشغف بالمُطارَدة، كانت الطلائع الواهية للإنسانية فيهم تذهب أدراج الرياح. وقد وسَم أويا أوج-لومي في الليل بكلمة الموت، فكان أوج-لومي طريدة اليوم.

ركَضا في خطٍّ مستقيم — فقد كانت هذه فرصتهما الوحيدة — وهما يَتخطيان أيَّ مساحة من الأرض تَعترض طريقهما؛ مساحة يُغطِّيها نبات القُرَّاص الشائك، وأخرى خالية تمامًا، ثم أجَمة من الحشائش هرَب منها ضبع مُزمجِر. ثم جاءت الغابة مرةً أخرى، مساحات واسعة من الأوراق المُتساقطة الرطبة والنباتات الطحلبية الظليلة تحت جذوع الأشجار الخضراء. ثم جاء مُنحدَر شديد مُغطًّى بالأشجار، وأُفق مُمتد من الأشجار، ثم مساحة فارغة، ومساحة خضراء نضرة من الطمي الأسود، ثم مساحة مفتوحة مرةً أخرى، ثم أجَمة من شجيرات العليق الحادة، تحتوي على آثار لحيوانٍ بداخلها. ومن خلفهم اختفت آثار المطارَدة وتفرَّقت، بينما ظل أويا يتعقَّبهم. حافظت أودينا على المركز الأول، حيث كانت تجري بخفة وتتنفَّس بسهولة؛ لأن أوج-لومي كان يحمل «الحجر الناري» في يده.

لقد أثَّر على سرعته، ليس في البداية، لكن بعد بعض الوقت، ومن خلفها تباعدت خطواته عنها فجأة. فعندما نظرت أودينا وراءها في أثناء اجتيازهما مساحة مفتوحة أخرى، رأت أوج-لومي خلفها بالعديد من الياردات، وكان أويا يَقترب منه، رافعًا قرن الأُيَّل بالفعل في الهواء ليَضربه به. أما فاو والآخرون فكانوا يَظهرون بالكاد من ظلال الغابة.

عندما رأت أودينا أوج-لومي في خطر ركضت إلى جانب الطريق وهي تَنظر إلى الخلف، ورفعت ذراعيها وهي تَصيح بصوت مرتفع، تمامًا في وقت قذف القرن. وما كان من أوج-لومي الشاب، الذي توقَّع هذا وفهم صيحتها، إلا أن خَفَض رأسه، حتى إن القذيفة لم تمسَّ إلا فروة رأسه، فسبَّبت جرحًا بسيطًا، وطارت من فوقه. التفت على الفور، ممسكًا بـ «الحجر الناري» الكوارتزي في كلتا يدَيه، وقذفه مباشرةً على جسم أويا، وركض بحرية بعد هذه الرمية. صاح أويا، لكنه لم يَستطع تفاديه. ارتطم الحجر به أسفل ضلوعه، كانت ضربة ثقيلة ومُباشرة، فترنَّح وسقط على الأرض دون أيِّ صياح. أمسك أوج-لومي بالقرن — الذي كان طرَف إحدى شوكاته مُلطَّخًا بدمائه — وواصل الركض مرةً أخرى مع تساقُط قطرات الدم الحمراء من شعره.

تدحرَج أويا مرتين، واستلقى للحظة قبل أن يَنهض، ثم لم يركض بسرعة، وتغيَّر لون وجهه. تخطَّاه فاو ثم آخرون، وسعل وتنفَّس بمشقة، لكنه واصل الركض.

أخيرًا وصل الهاربان إلى ضفَّة النهر، حيث كان مجرى الماء عميقًا وضيقًا، وكان ما يزال بينهما وبين فاو — المُطارِد الأول؛ وهو الرجل الذي صنَع حجارة الضرب — خمسون ياردة. وكان يحمل في إحدى يديه أحدَها؛ حجرَ صوَّانٍ ضخمًا، في شكل المَحار لكن في ضِعف حَجمِه، مصقولًا بحيث يُصبِح كنَصل الإزميل.

انطلقا لأسفل على ضفة النهر المُنحدرة حتى وصلا إلى مجرى النهر، واندفعا سابحَيْن عبرَ مياه النهر العميقة ليَعبُراه في ضربتَين أو ثلاث، وخرَجا منه مرةً أخرى، مُنتعشَيْن ويقطر منهما الماء، ليتسلَّقا الضفة الأخرى من النهر. كان أمرًا مضنيًا؛ فمع نموِّ شجر الصفصاف بكثافة هناك كان لا بد من تسلُّقِها بمشقة. وبينما كانت أودينا ما تزال بين الفروع الفِضية وأوج-لومي في الماء — حيث أعاقه القرن — لاح فاو على الضفة المقابلة، وجاءت حجارة الضرب، التي قُذفت ببراعة، بجوار ركبة أودينا. كافحت أودينا لتصل لأعلى الضفَّة، وسقطت.

سمعا المُطارِدين وهم يَصيح أحدهم إلى الآخر، فتسلَّق أوج-لومي إليها وهو يتحرَّك في خطٍّ مُتعرِّج حتى يُفسد على فاو تصويبه، وشعر بحجر الضرب الثاني وهو يلمس أذنه، وسمع الماء يَتناثر من تحته.

عندها أثبت أوج-لومي، الصبي، أنه قد أضحى في منزلة رجل؛ فعندما كان يُواصل الركض، وجَد أن أودينا تتخلَّف عنه وتَعرج على قدمها، فاستدار وصاح بوحشية، وبوجه مريع يقطر دمًا، وتظهر عليه علامات الغضب المفاجئ، ركض مسرعًا متجاوزًا إياها عائدًا

إلى الضفة، وهو يضع القرن حول رأسه. أما أودينا فقد استمرت تركض ببسالة، رغم حاجتها إلى العرج في كل خطوة، وكان الألم حادًّا بالفعل.

هكذا رأى فاو، عندما كان يصعد فوق الحافَة مُمسكًا بفروع الصَّفصاف المستقيمة، أوج-لومي يتجاوزه طولًا، ويَبدو ضخم البِنية تحت السماء، ثم رأى جسده بالكامل يَستدير، ورأى يدَيه مُمسكتَين بالقرن. اندفعت حافَة القرن نحوه في الهواء، ولم يرَ شيئًا بعد ذلك. تحرك الماء تحت شجر الصفصاف وصنع دوامات، وتحول إلى اللون القُرمزي لمسافة ست أقدام في النهر. أما أويا، الذي جاء فيما بعد، فقد توقَّف والماء يصل إلى ركبتيه في منتصف مجرى النهر، فغيَّر الرجل الذي كان يسبح اتجاهه.

أما الرجال الآخرون الذين ذهَبوا في أعقابهما — لم يكن أيٌّ منهم قويًّا للغاية (فقد كان أويا ماكرًا أكثر من كونه قويًّا، فلم يكن يتحمَّل أيَّ مُنافِسين أقوياء) — فقد تباطئوا لبُرهة عند رؤية أوج-لومي واقفًا هناك فوق الصفصاف، مخضَّبًا بالدماء وشكله مريع، ليَفصل بينهم وبين الفتاة العرجاء، حاملًا القرن الضخم وملوحًا به. فبدا كما لو أنه دخَل الماء صبيًّا، وخرج منها رجلًا مُكتمِل النمو.

كان يعلم ما يوجد خلفه؛ مساحة واسعة من العشب، ثم أجَمة يُمكن لأودينا الاختباء فيها. كان هذا واضحًا في ذهنه، على الرغم من أن قدراته على التفكير كانت ضعيفة للغاية لتُمكِّنه مِن توقُّع ما سيحدث بعد ذلك. وقَف أويا والماء يصل إلى ركبتِه، مُتردِّدًا وأعزل. بقي فمه الضخم مفتوحًا، فظهرت أنيابه، وكان يلهث بشدة. كان جانبه داميًا، وتظهر عليه كدمات تحت الشعر. كان الرجل الواقف بجانبه يَحمل عصًا مسنونة، أما بقية الصيادين فصعِدوا واحدًا تلو الآخر إلى أعلى الضفة، وكانوا رجالًا يتَّسمون بالشعر الكثيف والأذرُع الطويلة، ويُمسكون بأحجار صوَّانٍ وعِصي. ركَض اثنان منهم على طول الضفة في اتجاه مجرى النهر، ثم انطلقا إلى أسفل إلى الماء؛ حيث ظهَر فاو على السطح يُناضل بضعف. تحدَّثا إليه بكلام غير مفهوم دون إبداء أيِّ مُحاوَلة فعلية لمساعدته؛ فغاص على الفور مرةً أخرى. وهدد آخران أوج-لومي من الضفة.

ردَّ عليهما، بصيحات وإهانات وإيماءات غير واضحة. ثم أصدَر أويا، الذي كان واقفًا مترددًا، صوتًا غاضبًا كالزئير، وأدار قبضته وخاض الماء مُندفعًا، وتبعه أتباعه متسبِّبين في تناثُر الماء من ورائه.

نظر أوج-لومي خلفه فرأى أودينا قد اختفَت بالفعل داخل الأجَمة. كان سيفضل أن يَنتظر أويا، لكن أويا فضَّل أن يصارعه في الماء تحته حتى يُصبح الآخرون بجواره. كان

تكتيك البشر في تلك الأيام، في كل قتال جاد، يَعتمد على أسلوب الحشد. فكانوا يتجمَّعون حول الفريسة الضعيفة ويَنقضُّون عليها. شعر أوج-لومي بأنهم على وشك الانقضاض عليه، فرمى القرن على أويا، واستدار وركض هاربًا.

عندما توقَّف لينظر خلفه من داخل ظلال الأجَمة، لم يرَ إلا ثلاثة من مُطارديه هم الذين تبعوه فقط عبر النهر، وكانوا عائدين مرةً أخرى. وكان أويا، بفمه الذي ينزف، على الجهة البعيدة من مجرى النهر مرةً أخرى، لكنه كان في موقع أكثر انخفاضًا، وكان يضع يده على جنبه. أما الآخرون فقد كانوا في النهر يَسحبون شيئًا إلى الشاطئ. وهكذا توقَّفت المطاردة على الأقل لبعض الوقت.

وقف أوج-لومي يُراقب لفترة، وزمجر عندما رأى أويا، ثم استدار واندفع إلى داخل الأجَمة.

وفي لحظة جاءت أودينا تُهرع للانضمام إليه، وانطلَقا يدًا بيد. أدرك الألم الذي تُعاني منه بسبب ركبتها المجروحة، واختار الطُّرُق الأسهل. لكنهما استمرا في السير طوال هذا اليوم، مِيلًا بعد ميل، عبر غابات وأجمات، حتى وصَلا أخيرًا إلى أرض الطباشير، وهي مساحة مفتوحة من الحشائش بها غابات نادرة من شجر الزان، وشجر القضبان الذي يَنمو بالقرب من الماء، واستطاعا رؤية جبال «ويلدن» عن قرب، ومجموعات من الخيول ترعى معًا. واصَلا السير بحذر، مع البقاء طوال الوقت بالقرب من الأجَمة؛ إذ إن هذه مِنطقة غريبة، وحتى طُرُقها كانت غريبة. كانت الأرض ترتفع باضطراد، حتى أصبحت غابات الكَستَناء تمتدُّ تحتهما واسعة وزرقاء اللون، وتَبدو مُستنقَعات نهر التيمز فِضية اللون، وعالية، وبعيدة. لم يَستطيعا رُؤية أيِّ إنسان؛ حيث كان البشَر، في تلك الأيام، حديثي عهد بهذا الجزء من العالم، وكانوا يتحرَّكون ببطء على طول النهر. وعند اقتراب المساء وصَلا إلى النهر مرةً أخرى، لكنه الآن يَجري في شِعب، بين مُنحدَرات عالية من الطباشير الأبيض الذي كان يتدلَّى فوقَه أحيانًا. وفي أسفل المنحدرات كانت توجد أجَمة من أشجار القضبان، وكان ثمَّة كثير من الطيور هناك. وفي أعلى الجُرف كانت توجد حافَة صخرية عند شجرة، فتسلَّقا عليها لقضاء الليل.

لم يكن لديهما أيُّ طعام تقريبًا، ولم يكن التوت ينمو في هذا الوقت من السنة، ولم يكن لديهما وقتٌ للذهاب من أجل الاصطياد بفخٍّ أو كمين. سارا في صمت يَغلب عليهما فيه الجوع والإنهاك، يأكلان أغصان الشجر وأوراقه. إلا أن سطح الجُرف كان به عدد وافر من الحلزون، وداخل شُجَيرة كان يوجد البيض الذي وضعه حديثًا طائر صغير، ثم

صوَّب أوج-لومي على سنجاب في إحدى أشجار الزان وقتله، وهكذا استطاعا أخيرًا تناول طعام جيد. تولى أوج-لومي الحراسة طوال الليل، واضعًا ذقنه بين ركبتيه؛ وسمع صوت نباح الثعالب الصغيرة، وضجة أفيال الماموث في أسفل الشِّعب، وصياح الضباع وعوائها من مكان بعيد. كان الجو باردًا، لكنهما لم يَجرُؤا على إشعال نار. ومتى كان يغفو كانت رُوحه تُغادره وتلتقي مباشرةً بروح أويا، وكانتا تتعارَكان. كان أوج-لومي يحلم دومًا بأنه يُصاب بالشلل فلا يستطيع توجيه ضربات أو الركض، ثم يستيقظ فجأة. حلمت أودينا أيضًا بأشياء شريرة عن أويا؛ ومن ثم استيقظ الاثنان والخوف منه يَعتمل في قلبَيهما، ومع بزوغ ضوء الفجر رأَيَا وحيد قرن ذا صوف يَسير مُتخبِّطًا في أسفل الوادي.

في أثناء النهار داعب كلٌّ منهما الآخر، وكانا سعيدَين بأشعة الشمس. وكانت ساق أودينا مُتيبِّسة للغاية حتى إنها جلست على الحافَة طوال اليوم، أما أوج-لومي فقد عثَر على أحجار صوَّان ضخمة ناتئة من واجهة الجُرف، أكبر بكثير من أيِّ أحجار رآها من قبل، وجرَّ بعضها إلى الحافَة الصخرية وبدأ في تقطيعها، حتى يكون مُسلَّحًا ضد أويا عندما يأتي مرةً أخرى. وعند إمساكه بأحدها ضحك بشدة، وضحكت أودينا، وواصَلا الضحك بسخرية. كان به ثقبٌ، وضعا فيه أصابعهما؛ فقد كان أمرًا مضحكًا حقًّا. ثم نظر كلٌّ منهما إلى الآخر من خلاله. بعد ذلك، أحضر أوج-لومي لنفسه عصًا وأدخلها بالصدفة داخلَ هذا الحجر المضحك؛ فدخلت العصا وعلقت فيه؛ فقد أدخلها بقوة شديدة بحيث أصبح من الصعب عليه سحبها. كان هذا لا يَزال غريبًا، بالكاد مُضحِكًا وشبه مخيف، ولبعض الوقت لم يكن أوج-لومي يَرغب في لمس هذا الشيء؛ فكان الأمر كما لو أن حجر الصوَّان قد قضَم العصا وأمسكها بأسنانه. لكنه اعتاد على هذا المزيج الغريب. بدأ يُلوِّح بالعصا، وأدرك تقريبًا أن العصا مع الحجر الثقيل المُثبَّت في طرَفها تُوجِّه ضربة أفضل من أيِّ شيء عرفه. ذهب جَيْئة وذهابًا وهو يُلوِّح بالعصا، ويَضرب بها، لكنه بعد فترة سئم منها وألقاها جانبًا. وفي المساء، صعد إلى حافَة المُنحدَر الأبيض، وجلس يُراقب جُحر أرنب حتى خرجت الأرانب للعب. لم يكن يوجد بشرٌ في الجوار، وكانت الأرانب غافلة. رمى بحجرِ ضربٍ كان قد صنعه، وقتل واحدًا.

في هذه الليلة أشعَلا نارًا من شرارات حجر الصوَّان وسعف السراخس، وتحدثا وتداعبا حولَها. وفي نومهما جاءت رُوح أويا مرةً أخرى، وفجأةً، بينما كان أوج-لومي يُحاول عبثًا محاربتها، ظهر حجر الصوَّان المُضحِك المُلتصِق بالعصا في يده، وضرب أويا به، ويا للعجب! فقد قتَله. لكن جاءت بعد ذلك أحلامٌ أخرى عن أويا؛ فالأرواح تتحمَّل كثيرًا

من القتل، وكان يتعيَّن قتله مرةً أخرى. ثم بعد ذلك، لم يبقَ الحجر في العصا. استيقظ مُتعبًا ومكتئبًا إلى حدٍّ ما، وظل عابسًا طوال فترة ما قبل الظهيرة، على الرغم من حنان أودينا معه، وبدلًا من الذهاب إلى الصيد جلس يَصنع حافَة حادَّة لحجر الصوَّان الفريد، ويَنظر إليها على نحو غريب. بعد ذلك ربط حجر الصوَّان المثقوب فوق العصا بشرائط من فروة الأرنب. بعد هذا سار ذهابًا وإيابًا على الحافَة الصخرية وهو يَضرب بها ويُتمتِم لنفسه ويفكر في أويا. كان يشعر بحدَّتها الشديدة وثقلها في يده.

لعدة أيام، أكثر من قدرة أيِّ إنسان على العدِّ في تلك الأيام — خمسة أيام على الأرجح، أو ستة — ظل أوج-لومي وأودينا على هذه الحافَة الصخرية في شِعب النهر، وتخلَّصا من كل خوفهما من البشر، وكانت النار التي يُشعلانها تُصدر لهيبًا أحمر اللون في الليل. كانا يَشعُران بسعادة بالغة معًا؛ فقد كان الطعام متوافرًا في كل يوم، وكان الماء عذبًا، ولم يكن يوجد أعداء. تحسَّنت ركبة أودينا في غضون بضعة أيام؛ إذ كان جلد هؤلاء البُدائيين القدماء سريع الالتئام. في الواقع كانا في غاية السعادة.

وفي أحد هذه الأيام، رغم أن هذا لا علاقة كبيرة له بهذه القصة، أسقط أوج-لومي قطعة كبيرة من الصوَّان من على الجُرف. لقد شاهدها وهي تسقط، وتَثب عبر ضفة النهر لتسقط في مائه، وبعد الضحك والتفكير في الأمر بعض الشيء حاول بقطعة أخرى. حطَّمت هذه القطعة شُجَيرةً للبندق بأكثر طريقة ممتعة على الإطلاق. قضَيا طوال النهار في إسقاط الحجارة من الحافَة الصخرية، وفي المساء اكتشفا أن هذه التسلية الجديدة والمُمتعة يمكن ممارستها أيضًا من حافَة الجُرف. وفي اليوم التالي نسيا هذه المتعة، أو على الأقل بدا أنهما نسياها.

إلا أن أويا جاء في الأحلام ليُفسد عليهما هذه الجنة؛ فقد جاء يُقاتل أوج-لومي طوال ثلاث ليال. وفي الصباح بعد هذه الأحلام كان أوج-لومي يسير ذهابًا وإيابًا، يُهدِّده ويلوِّح بالفأس، ثم أخيرًا أتى الليل بعدما قتل أوج-لومي ثعلب الماء بضربة على رأسه، وأقاما مأدُبةً احتفالية عليه. ذهَب أويا بعيدًا للغاية، واستيقظ أوج-لومي مُقطِّبًا حاجبَيه الكثيفَين، وأخذ فأسه ومد يده نحو أودينا وطلب منها انتظاره عند الحافَة الصخرية. ثم تسلَّق إلى أسفل الجُرف الأبيض، ونظر إلى الأعلى مرة واحدة مِن أسفله ولوَّح بفأسه، ودون النظر مرةً أخرى إلى أعلى سار يخطو بخطًى واسعة على طول ضفة النهر حتى اختفى وراء المُنحدَر البارز عند المنحنى.

مكثَت أودينا يومين وليلتين وحدَها عند النار على الحافَة تَنتظر، وفي الليل كانت الوحوش تعوي في كل مكان على المُنحدَرات وفي أسفل الوادي، وعلى المُنحدَر المقابل لها

كانت الضِّباع الحدباء تتجوَّل سوداء اللون تحت السماء. لكن لم يقترب منها أيُّ شيء شرِّير إلا خوفها. ومن بعيد سمعت صوتَ زئير أسد، يتبع الخيول القادمة نحو الشمال فوق الأراضي العُشبيَّة مع قدوم الربيع. انتظرت طوال هذا الوقت، وكان الانتظار مؤلمًا.

وفي اليوم الثالث عاد أوج-لومي، أعلى النهر. كان بشَعره بعضٌ من ريش غراب، وكانت فأسه ملطخة باللون الأحمر، وعليها شعرات سوداء طويلة، وكان يَحمل العِقد المعروف بأنه المفضَّل لأويا في يده. سار في المناطق الرخوة، ولم يَكترث على الإطلاق لآثار أقدامه. وباستثناء جرحٍ مفتوح أسفل فكه لم تكن توجد أيُّ جروح بجسمه. صاح أوج-لومي متهلِّلًا: «أويا!» ورأت أودينا أن الأمر سار على ما يُرام. ألبس أودينا العِقد، وتناولا الطعام والشراب معًا. وبعد تناول الطعام بدأ يُعيد عليها القصة بأكملها من البداية، عندما وقعَت عينا أويا على أودينا، وعندما طارد أويا وأوج-لومي دُبٌّ وهما يَتعارَكان في الغابة، مُستعيضًا عن الكلمات الوافية بكثير من الإيماءات التمثيلية، قافزًا على قدمَيه وملوِّحًا بفأسه الحجرية عندما وصل إلى الحديث عن العراك. كان العراك الأخير عراكًا هائلًا؛ حيث ضرَب الأرض برجليه وصاح، ونفخ نفخة في النار أرسلت وابلًا من الشرر إلى الأعلى في ظلام الليل. احمرَّ وجه أودينا في ضوء النار، وكانت تُحدِّق فيه، ووجهها متورِّدٌ وعيناها تلمعان، والعِقد الذي صنَعه أويا حول عنقها. كان هذا الوقت رائعًا، وكانت النجوم التي تُطلُّ علينا الآن تَنظر إليها، جدتنا هذه؛ التي مضى على وفاتها الآن نحو خمسين ألف سنة.

(٢) دب الكهوف

في تلك الأيام، عندما هرَبت أودينا وأوج-لومي من قبيلة أويا نحو جبال ويلد المكسوَّة بأشجار التنُّوب، عبر غابات الكَستَناء الحلو والأرض الطباشيرية المكسوَّة بالحشائش، واختبآ أخيرًا في شِعب النهر بين الجروف الطباشيرية، كان البشر قليلين وأماكن مَعيشتِهم مُتباعِدة؛ فكان أقرب البشر إليهم هم رجال القبيلة، الذين يبعدون عنهم مسيرة يوم كامل أسفل النهر، ولم يكن يوجد أيُّ بشر أعلى الجبال. كان الإنسان في واقع الأمر وافدًا جديدًا على هذا الجزء من العالم في هذا الزمن السَّحيق؛ إذ كان يتقدَّم ببطء على طول الأنهار، جيلًا بعد جيل، من مكان معيشة لآخر، متَّجهًا نحو الجنوب الغربي. ولم تكن الحيوانات التي تحتل الأرض: فرس النهر ووحيد القرن في أودية الأنهار، والخيول في السهول العُشبية، والغزلان والخنازير في الغابات، والقُرود الرَّمادية على الأغصان، والماشية في المُرتفَعات؛ تخشى الإنسان إلا قليلًا، فضلًا عن الماموث في الجبال والأفيال التي كانت تَعبُر الأرض في

وقت الصيف قادمةً من الجنوب. فلمَ عساها تَخشاه؛ إذ لم يكن يَملك من الأسلحة إلا الصوَّان الخَشِن المُقطَّع الذي لم يتعلَّم وضع مقبض له، ولم يكن يَرميه بمهارة، والرماح السيئة المصنوعة من الخشب المدبَّب، في مقابل الحوافر والقرون والأنياب والمخالب؟

لم يرَ أندو، دبُّ الكهوف الكبير، الذي عاش في الكهف أعلى الشِّعب، إنسانًا قطُّ طوال حياته الحكيمة والمُحترَمة، حتى رأى في منتصف الطريق في إحدى الليالي، عندما كان يتجوَّل أسفل الشِّعب على طول حافة الجُرف، وهَج نارِ أودينا فوق الحافَة الصَّخرية، وكانت أودينا متورِّدة اللون ولامعة، وأوج-لومي، بظلِّه الهائل الذي يُحاكي حركاته على الجُرف الأبيض، يتحرَّك ذهابًا وإيابًا، يهزُّ شعرَه المُلبَّد، ويُلوِّح بفأسه الحجرية — أول فأسٍ من الحجارة — وهو يتغنَّى بقتل أويا. كان دُب الكهوف بعيدًا أعلى الشِّعب، ورأى هذا الشيء مشوَّشًا ومن مسافة بعيدة. كان مندهشًا للغاية لدرجة أنه وقَف هادئًا تمامًا على الحافَة، يشمُّ رائحة احتراق السَّرخس الجديدة عليه، ويتساءل ما إذا كان الفجر يَبزغ في المكان الخطأ.

كان دبُّ الكهوف سيد الصخور والكهوف، تمامًا كما كان شقيقه الأصغر حجمًا، الدبُّ الأشهب، سيد الغابات الكثيفة في الأسفل، وكما كان الأسد المرقَّط — إذ كان الأسد في تلك الأيام مرقَّطًا — سيد الأجمات الشوكية وأحواض القصب والسهول المفتوحة. كان أضخم الحيوانات الآكلة للحم، فكان لا يَعرف الخوف، ولم يكن أيُّ كائن آخر يَفترسه، ولم يكن يَتعارك مع أيِّ كائن آخر، ولم يكن يفوقه قوةً إلا وحيد القرن. فحتى الماموث كان يتجنَّب مِنطقته. أربكه هذا الغزو؛ فقد لاحظ أن هذه الوحوش الجديدة تُشبه القرود، وخفيفة الشَّعر مثل الخنازير الصغيرة. قال دبُّ الكهوف: «قرد وخنزير صغير؛ ربما لا يكون شديد السوء، لكن هذا الشيء الأحمر الذي يَقفز، والشيء الأسود الذي يقفز معه هناك! لم أرَ مثل هذا قطُّ في حياتي من قبل.»

تقدم ببطء على طول حافة الجُرف نحوَهما، وتوقف ثلاث مرات ليشمَّ ويُحدِّق، وازدادت قوة الدخان المُتصاعد من النار. كانت بعضُ الضباع أيضًا منشغلة بما يَجري في الأسفل، حتى إن أندو، الذي تسلَّل بهدوء ونعومة، اقترب منها كثيرًا قبل أن تَشعر بوجوده. أجفَلت الضباع وهي تلوم نفسها وانطلقت خلسة. وبعد أن صارت على بُعد مئات الياردات، التفَتت إليه وبدأت في الصياح وتوجيه السباب إليه لمُباغتتِه لها. صاحت: «يا-هاه! مَن الذي لا يستطيع حفر جُحره؟ من الذي يأكل الجذور مثل الخنزير ...؟ يا-هاه!» فحتى في تلك الأيام كانت الضباع بذيئة تمامًا مثل حالها في عصرنا هذا.

تمتَم أندو قائلًا: «ومَن الذي يُجيب على الضباع؟» وهو يُحدِّق فيها في ظلمة منتصف الليل، ثم ذهب لينظر إلى حافة الجُرف.

وهناك كان أوج-لومي ما يزال يحكي قصته، والنار يَنخفِض لهيبها، وكانت رائحة الاحتراق ساخنة وشديدة.

وقف أندو على حافة الجُرف الطباشيري لبعض الوقت، يَنقل وزنه الهائل من قدم إلى أخرى، ويُحرِّك رأسه جَيْئة وذهابًا، وفمه مفتوح وأذناه مُنتصبتان وترتعشان، ويشمُّ بفتحتي أنفه الكبير الأسود. لقد كان دبُّ الكهوف فضوليًّا للغاية، أكثر فضولًا من أيِّ دبٍّ يعيش حاليًّا، كما أن النار المشتعلة والحركات غير المفهومة للإنسان، فضلًا عن التطفُّل على مِنطقته التي لا جدال فيها، كل هذا حرك بداخله شعورًا بأن ثمَّة أحداثًا جديدة وغريبة. كان سيُلاحق ابن الظبي الأحمر في تلك الليلة؛ فقد كان دبُّ الكهوف صيادًا متنوعًا، لكن هذا جعله يَحيد تمامًا عن مَهمته.

صاحت الضباع من خلفه: «يا-هاه! يا-هاه-هاه!»

عندما حدَّق أندو في ضوء النجوم، رأى آنئذٍ ثلاثةَ أو أربعة ضباع تتحرَّك جَيْئة وذهابًا على منحدر التل الرَّمادي. قال أندو: «سيظلُّون يَتسكَّعون حولي طوال الليل حتى أُقتل. حثالة العالم!» وحتى يُضايقهم بالأساس، قرَّر أن يواصل مراقبة الضوء الأحمر الخافِق في الشِّعب حتى بزوغ الفجر حتى يَدفع الضباع الحثالة إلى منازلها. اختفت بعد فترة، وسمع أصواتها كما لو كانت تُقيم حفلة عشاء، بعيدًا في غابات الزان. ثم أتَت تتسلَّل بالقرب منه مرةً أخرى. تثاءب أندو وتقدَّم على طول الجُرف، وتبعتْه الضِّباع، ثم توقَّف وعاد أدراجه.

كانت ليلة رائعة، مُرصَّعة بمجموعات نَجمية متلألئة؛ لقد كانت النجوم نفسها، لكن ليس المجموعات النَّجمية التي نَعرفها، ففي تلك الأيام كان لدى النجوم متسع من الوقت لتَنتقِل إلى أماكن جديدة. وفي مكان بعيد وراء المساحة المفتوحة، حيث كانت الضباع الرشيقة الجسم والمكتنزة الكتفين تَسير مُتباطئة وهي تعوي، كانت توجد غابة الزان والمُنحدَرات الجبلية ترتفع من خلفها، كلُغزٍ مُعتِم، حتى تظهر قممها المغطاة بالجليد بيضاء وباردة وواضِحة، عندما لمسَتها الأشعة الأولى للقمر الذي لم يَظهر بعد. عم السكون، باستثناء عُواء الضِّباع التي كانت تقطع هذا السلام من آنٍ لآخر، أو أصوات وقع أقدام الفِيَلة الوافدة حديثًا التي تسير أسفل التلال فيَحملها النسيم الخافت. وفي الأسفل الآن، تضاءَل الوميض الأحمر وأصبح ثابتًا، وظهَر بلونٍ أحمر داكن أكثر، وكان أوج-لومي قد انتَهى من قصته ويستعدُّ للنوم، وجلسَت أودينا تَستمع إلى الأصوات الغريبة لوحوش غير

معروفة، وتُراقب ضوء القمر وهو يتلألأ مبدِّدًا ظلام السماء من جهة الشرق. وفي الأسفل كان النهر يتحدَّث إلى نفسه، والأشياء غير المرئية تتحرَّك جَيْئة وذهابًا.

بعد بعض الوقت ذهَب الدبُّ بعيدًا، لكنه عاد مرةً أخرى في غضون ساعة. ثم، استدار، كما لو كانت ورَدت إليه فكرة، وصعد إلى أعلى الشِّعب …

انقضى الليل، واستمر أوج-لومي في النوم. وارتفع القمر المُحاق وأضاء الجُرف الأبيض الكئيب في الأعلى بضوء شاحب وغير واضح. ظل الشِّعب في الظل، وبدا أكثرَ ظلمة من ذي قبل. ثم بالتدريج جاء الصباح متسلِّلًا ليحلَّ محل ضوء القمر الشاحب. شرَدت عينا أودينا نحو حافَة الجُرف من فوقها مرة، ثم مرةً أخرى، وفي كل مرة كانت ترى الحافَة حادَّة وواضحة تحت السماء، ومع ذلك كان لديها شعور غامض بأن شيئًا يختبئ هناك. أصبح اللون الأحمر للنار داكنًا أكثر فأكثر، وأصبح يَتصاعد منها لونٌ رَماديٌّ، وأصبح العمود الرأسي من الدخان أكثر وضوحًا، وفي أعلى وأسفل الشِّعب أصبحت الأشياء الخفيَّة أكثر وضوحًا في ضوء النهار الأبيض. ربما غلبها النُّعاس.

تنبَّهت فجأة من وضع القرفصاء الذي كانت تجلس عليه، وانتصبت يَقِظَة، وراحت تتفحَّص الجُرف من أعلى وأسفل.

لم تُصدر أيَّ صوت يُذكر، وأوج-لومي أيضًا، استيقَظ على الفور من نومه الخفيف مثل الحيوانات، وأمسك بفأسه وتسلَّل إلى جانبها دون أن يُصدر صوتًا.

كان الضوء لا يزال خافتًا، والعالم كله الآن مُغطًّى باللونين الأسود والرَّمادي، وظلت نجمة واحدة باهتة متخلِّفة في السماء. كانت الحافَة الصخرية التي يجلسان عليها مساحة عشبية صغيرة، ربما يُقدَّر عرضها بست أقدام، وطولها بعشرين قدمًا، وتنحدر في اتجاه الخارج قليلًا، وبالقرب من حافَتها كان يَنمو القليل من نبتة القديس يوحنا. وفي أسفلها كانت الصخور البيضاء الناعمة تَنحدِر إلى الأسفل في مُنحدَرٍ حادٍّ يَبلغ نحو خمسين قدمًا حتى يصل إلى شجيرات البُندق الكثيفة التي تُحيط بحافَة النهر. وفي اتجاه النهر يَزيد انحدار هذا المُنحدَر، إلى أن يحتلَّ خطٌّ رفيع من الحشائش الضفة اليمنى حتى يصل إلى قمة المُنحدَر. وفي الأعلى، يوجد نتوء من الحجارة يَبلغ أربعين أو خمسين قدمًا في الكُتَل الضخمة المُميِّزة للطباشير، لكن في نهاية الحافَة قطع أخدود — فتحة شديدة الانحدار من الطباشير العديم اللون — واجهة الجُرف، وأعطى أساسًا لإنبات وعر، كانت أودينا وأوج-لومي يسيران عليه صعودًا وهبوطًا.

وقَفا صامتَين مثل غزال مذعور، بينما تأهَّبت كلُّ حواسهم. لبرهة لم يَسمعا شيئًا، ثم جاء صوت الهَواء من أسفل الأخدود وصوتُ حفيف أوراق الشجر.

أمسك أوج-لومي بفأسه وذهب إلى طرَف الحافَة؛ إذ كانت نتوء الطباشير في الأعلى تُخبِّئ الجزء العلوي من الأخدود؛ فرأى على الفور، بانقباض فجائي في قلبه، دُب الكهوف يقف في منتصف الطريق بينهما وبين حافة المُنحدَر، ويَتراجع خطوة إلى الخلف بحذر شديد بقدمِه الخلفية المسطحة. كانت قدماه الخلفيتان في اتجاه أوج-لومي، وكان يُطبق مخالبَه على الصخور والشجيرات حتى بدا مسطحًا على الجُرف. لم يَبدُ عليه إلا هذا؛ فمِن أنفه اللامع حتى ذيلِه القصير المُمتلئ بدا في حجم أسدٍ ونصف، في طول رجلَين طولَي القامة. نظر للخلف فاتحًا فمه الضخم وكأنه يَلهث من جهد رفع جسده الهائل عن الأرض، وأخرَج لسانه ...

اعتدَل واقفًا وتقدَّم إلى أسفل، واقترب ياردة واحدة.

قال أوج-لومي: «دُب!» وهو يَستدير وقد ابيضَّ وجهه من الرعب.

إلا أن أودينا كانت تُشير إلى أسفل الجُرف، والخوف يملأ عينيها.

فغَر أوج-لومي فاه؛ فتَحْتَهما كان ثمَّة كتلة أخرى ضخمة لونها بُني يميل إلى الرَّمادي، كانت الدبَّة الأنثى، تقف رافعة قدمَيها الأماميتَين على صخرة. لم تكن في حجم أندو، لكنها كانت كبيرة بما يَكفي لإخافتهما.

ثم فجأة أصدر أوج-لومي صيحة، والتقط حفنة من أوراق وأغصان السَّرخس المُبعثَرة على الحافَة الصخرية، وقذَفها في الرماد الشاحب للنار. صاح: «أيتها النار الشقيقة! أيتها النار الشقيقة!» وفعلت أودينا، التي بدأت تتحرَّك، الأمر نفسه؛ «أيتها النار الشقيقة! ساعدينا، ساعدينا! أيتها النار الشقيقة!»

كانت «النار الشقيقة» ما تزال حمراء من الداخل، لكنها تحولت إلى اللون الرَّمادي مع بعثرتهما لها. صاحا: «أيتها النار الشقيقة!» لكنها زفَرت ورحلت، ولم يبقَ منها إلا الرماد. ثم رقص أوج-لومي في غضب وضرَب الرماد بقبضته. إلا أن أودينا بدأت تَطرق الحجر الناري بحجرِ صوَّان. وكانت عينا الاثنين تتحوَّلان مرارًا وتَكرارًا إلى الأخدود حيث كان أندو يتسلَّق إلى الأسفل. «أيتها النار الشقيقة!»

فجأة ظهرت قدما الدب الخلفيتان الهائلتان المكسوَّتان بالفرو، من وراء النتوء الطباشيري الذي أخفاه. كان لا يزال يتسلَّق بحذر بالغ إلى أسفل السطح شبه العمودي. ورغم أنه لم يكن من المُمكِن رؤية رأسه، فإنهما كانا يستطيعان سماع صوته وهو يتحدَّث إلى نفسه. قال دبُّ الكهوف: «خنزير وقرد، لا بد أن يكون هذا جيدًا.»

استطاعت أودينا إشعال شرارة ونفخَت فيها؛ فاشتد الضوء الصادر منها ثم انطفأت. عندها ألقت الحجر الصوَّان والحجر الناري على الأرض وبدأت تَفرك يديها. كان وجهها غارقًا في الدموع، ثم قفزَت واندفعت مذعورة بضع أقدام أعلى الجُرف فوق الحافَة الصخرية. أنا لا أعرف كيف استطاعَت التعلُّق ولو للحظة بهذا المكان؛ فقد كان الطباشير عموديًّا ولا يستطيع القرد التعلق به. وفي غضون بضع ثوانٍ انزلقت مرةً أخرى إلى الحافَة الصخرية ويداها تنزفان.

كان أوج-لومي يتحرَّك حركات مُندفعة هائجة؛ فكان يذهب إلى طرف الحافَة الصخرية، ثم إلى الأخدود؛ فلم يكن يعلم ماذا يفعل، ولم يكن يستطيع التفكير. بدَت الدبَّة أصغر من رفيقها — بكثير. فإذا اندفَعا نحوها معًا، فربما يعيش أحدهما. قال دبُّ الكهوف: «إيه؟» والتفت أوج-لومي مرةً أخرى ورأى عينيه الصغيرتين تُحدِّقان من أسفل النتوء الموجود في الطباشير. قال الدب: «ابتعدا! فأنا سأقفز إلى الأسفل.»

بدأت أودينا، التي انكمشت مُرتعدَة في نهاية الحافَة الصخرية، في الصراخ مثل أرنب مقبوض عليه.

في خضمِّ هذا اعترى أوج-لومي نوعٌ من الجنون، وبصيحة هائلة أمسك بفأسه وبدأ في التسلُّق إلى أعلى الأخدود للدُّب. لم يتفوَّه بكلمة ولم يُطلِق صيحة، أما الوحش فقد أصدَر صوتًا بأنفه من المفاجأة. وفي لحظة كان أوج-لومي يتعلق بشجيرة أسفل الدب مباشرةً، وفي لحظة أخرى أصبح متعلِّقًا بظهره المكسو بالفرو، مع تعلق إحدى قبضتَيه بالشعر الموجود أسفل فكه. كان الدب مذهولًا من هذا الهجوم الغريب فلم يفعل أكثر من التشبُّث السلبي. ثم نزلت الفأس، أول فأس على الإطلاق، على جمجمته.

الْتوَى رأسُ الدُّب من جانب لآخر، وبدأ في إصدار زمجرة توبيخية شَرِسة؛ فقد ارتطمت الفأس به على بُعد بوصة واحدة من عينه اليسرى؛ فأعمى الدم الساخن هذا الجانب لديه. عندئذٍ زأر هذا الحيوان المُتوحِّش من المفاجأة والغضب، وصرَّ بأسنانه على بُعد ست بوصات من وجه أوج-لومي. ثم نزَلت الفأس، التي ضربت عن قرب، بقوَّة على جانب الفك.

أعمَتِ الضربة التالية الجانب الأيمن، وجعلته يُزمجِر، هذه المرة من الألم. رأت أودينا القدم الضخمة المُفلطَحة وهي تُفلت وتَنزلق، وفجأةً قفز الدبُّ قفزة خرقاء على الجانب، كما لو كان يُريد الوصول إلى الحافَة الصخرية. ثم اختفى كلُّ شيء، وسُحِقت شجيرات البندق، وتعالى صوتُ الأنين من الألم والجلَبة التي كانت مزيجًا من الصُّراخ والزمجرة من بعيد في الأسفل.

صرخت أودينا وركضت إلى الحافَة وأمعَنت النظر. للحظة كان الرجل والدُّبَّان كتلة واحدة معًا، كان أوج-لومي في الأعلى، ثم قفَز بعيدًا عن الدبين، وبدأ يتسلَّق الأخدود مرةً أخرى، بينما كان الدُّبَّان يتدحرجان ويصطدم كلٌّ منهما بالآخر بين شجيرات البندق. إلا أنه ترَك فأسه في الأسفل، وكانت ثمَّة ثلاثة خطوط حمراء تُشبه نهايتها شكل المقبض تَنزف من أسفل فخذِه. صاح: «فوق!» وفي لحظة كانت أودينا تسبقه إلى قمة الجُرف.

في نصف دقيقة كانا على القمة، وكان قلباهما يَخفقان بشدة، بينما كان أندو وزوجته بعيدًا وعلى مسافة آمنة من تحتهما. كان أندو جالسًا على مؤخِّرته، ويستخدم مخلبَيه الاثنين، محاولًا بحركات حانقة سريعة مسح الدم الذي يُعمي عينيه، ووقفَت الدبَّة على أطرافها الأربعة غير بعيدة عنه، وقد انتفَش فرْوها وتُزمجر بغضب. أما أوج-لومي فقد ألقى نفسه على العُشب، وراح يلهث وينزف واضعًا وجهه بين ذراعيه.

ظلَّت أودينا لثوانٍ تَنظر إلى الدبَّين، ثم عادت وجلست بجواره، وهي تنظر إليه …

مدَّت الآن يدها برفقٍ ولمسَته، ونطقت باسمه بصوتٍ خافت. استدار إليها ورفع نفسه على ذراعه. كان وجهُه شاحبًا، مثل وجه شخصٍ خائف. نظر إليها بثباتٍ لدقيقة، ثم ضحكَ فجأة، وقال مبتهجًا: «واه!»

فقالت هي: «واه!» وهو حوار بسيط لكنه مُعبِّر.

بعد هذا جاء أوج-لومي وركَع بجوارها، وأمعن النظر وهو راكع على يدَيه وركبتيه من فوق الحافَة وفحَص الأخدود. أصبح نفَسه مُنتظمًا الآن، وتوقف الدم الذي كان يسيل على رجله، رغم أن الخدوش التي أحدثَتها الدبة كانت مفتوحة وواسعة. رفَع يدَيه من فوق الأرض، وجلس يُحدِّق في آثار أقدام الدب الضخم التي تقترب من الأخدود؛ فقد كانت في عرض رأسه وفي ضِعف طوله. ثم قفَز إلى أعلى عند واجهة الجُرف حتى استطاع رُؤية الحافَة الصخرية؛ عندها جلَس لبعض الوقت يُفكِّر، بينما كانت أودينا تُراقبه.

نهض أوج-لومي أخيرًا، كما لو كان شخصًا اتَّخذ قراره. عاد في اتجاه الأخدود، وأودينا بالقرب منه، وتسلَّقا معًا إلى الحافَة الصخرية. أخذا الحجر الناري والحجر الصوَّان، ثم هبط أوج-لومي إلى أسفل الجُرف بحذرٍ بالغ، وعثر على فأسه. عادا إلى الجُرف الآن بهدوء بالغ قدرَ الإمكان، وهما يُديران وجهَيهما ويَنظُران بثبات نحو منبع النهر ويَنطلِقان في مشي سريع. لم تَعُد الحافَة الصخرية منزلًا لهما بعد الآن، مع وجود هذين الزائرَيْن في الجوار. حمل أوج-لومي الفأس وأودينا الحجر الناري؛ فقد كان الانتقال في العصر الحجري القديم بسيطًا للغاية.

اتَّجها نحو منبع النهر، رغم أنه ربما يؤدِّي إلى عرين دبِّ الكهوف؛ لأنه لم يكن يوجد أيُّ طريق آخر يُمكنهما الذهاب فيه؛ ففي اتجاه النهر توجد القبيلة، وماذا لو أن أوج-لومي لم يَقتُل أويا وفاو؟ وكان لزامًا عليهما البقاء بالقرب من النهر، بسبب الشرب.

من ثم واصَلا السير، عبر أشجار الزان، وظلَّ الشِّعب يزداد عمقًا حتى جرى النهر سريع الزَّبَد أسفلَهم بنحو خمسمائة قدم. وبين كل الأشياء المُتغيِّرة في هذا العالم المتغيِّر، كانت مجاري الأنهار، في الوديان العميقة الأقل تغيُّرًا. كان هذا نهر واي، الذي نعرفه في عصرنا الحالي، وسارا في الأماكن نفسها التي توجد فيها حاليًّا مدينتا جيلدفورد وجودالمينج الصغيرتان، فكانا أول بشر يَصِلُ إلى هذه الأرض. ذات مرة سَمِعا صوت قردٍ رَمادي ثم اختفى الصوت، وعلى طول حافة الجُرف، الواسعة والمستوية، امتدَّ أثرُ دبِّ الكهوف الضخم.

بعد هذا انحرف أثرُ الدبِّ بعيدًا عن الجُرف؛ مما أظهَر — على حدِّ ظن أوج-لومي — أنه جاء من مكانٍ ما إلى اليسار، ومع استمرارهما في السير على حافة الجُرف، وصَلا الآن إلى نهايته. وجَدا نفسَيهما يُطلان على مساحة هائلة شبه دائرية في الأسفل سبَّبها انهيار المُنحدَر الصخري؛ فقد تحطَّم المنحدر عند منتصف الشِّعب تمامًا، حاجزًا المياه عند مصبِّ النهر داخل بركة كانت تَفيض في منحدر النهر. حدث الانهيار منذ فترة طويلة؛ فقد غطَّت عليه الأعشاب الآن، لكن واجهة المُنحدَر التي كانت توجد أمام شبه الدائرة هذه كانت لا تزال تبدو جديدة وبيضاء تمامًا مثلما كان شكلها بالتأكيد في اليوم الذي انكسر فيه المُنحدر الصَّخري وانزلق إلى الأسفل. وتحت سفح هذا المنحدر كانت توجد مداخل العديد من الكهوف مكشوفة تمامًا وسوداء اللون. وبينما كانا واقفَين هنا، يَنظران إلى هذه المساحة، ولا يَرغبان في اختراقها لأنَّهما كانا يَعتقدان أن عرين الدِّبَبة يقع في مكانٍ ما على اليسار في الاتجاه الذي يتحتَّم عليهما سلوكه، شاهَدا فجأة أول دبٍّ ثم تبعه اثنان تصعَد جميعها المُنحدَر العُشبي على اليمين وتَسير عبر المساحة الخضراء نحو كهوفها. كان أندو في المقدمة، وكان يَميل قليلًا على قدمِه الأمامية، وكان مظهرُه كئيبًا، وجاءت الدُّبة من خلفه تسير بخُطًى قصيرة وبطيئة.

تقهقرَت أودينا وأوج-لومي دون إصدار أيِّ صوت من المنحدَر حتى لم يعد بإمكانهما رُؤية الدببة إلا من فوق الحافَة. ثم توقَّف أوج-لومي. جذبت أودينا ذراعه، لكنه التفت إليها في إيماءة تدلُّ على الرفض، فسقطَت يدها. وقف أوج-لومي يُراقب الدببة، والفأس في يده، حتى اختفت داخل الكهف. زمجر بهدوء، ولوَّح بالفأس على أقدام الدبَّة المُتقهقِرة. ثم ما سبَّب الرعب لأودينا أنه بدلًا من أن يَزحف مُبتعدًا معها، استلقى ممدِّدًا على الأرض

وزحَف إلى الأمام في وضعٍ يستطيع منه رؤية الكهف. لقد كانت دِبَبة، وكان يتصرَّف كما لو أنه يُراقب أرانب!

استلقى هادئًا، مثل قطعة من لحاء الشجر، منقطة بأشعة الشمس تحت ظل الأشجار. كان يُفكِّر، وقد تعلَّمت أودينا، حتى عندما كانت طفلة صغيرة، أن أوج-لومي عندما يُصبح هادئًا هكذا، ويَضع عظام فكه على قبضته، تبدأ أشياء جديدة على الفور في الحدوث.

مرَّت ساعة قبل أن ينتهي من التفكير، وبحلول الظهيرة عثَر هذان الهمَجيَّان الصغيران على طريق العودة إلى حافَة الجُرف الذي يَعلو كهف الدِّبَبة. قضيا طوال فترة بعد الظهيرة في القتال باستماتة مع حجرٍ ضخمٍ من الطباشير؛ حيث كانا يُدحرِجانه دون استخدام أيِّ شيء، بخلاف عضلاتهما القوية، من الأخدود الذي كان يتدلى فيه مثل سنٍّ على وشك السقوط، في اتجاه قمة الجُرف. كان مُحيطه يبلغ ياردتَين كاملتَين، وكان يصل في ارتفاعه إلى خصر أودينا، وكان مُتعرِّجًا وبه سنون من حجر الصوَّان. وعندما غربت الشمس كان الحجر مُستقرًّا، على بُعد ثلاث بوصات من الحافَة، فوق كهف دبِّ الكهوف الكبير.

وفي الكهف، فتَر الحوار في فترة بعد الظهيرة؛ فغفَت الدبة عابسة في ركنها — فقد كانت مشغولة بالتفكير في الخنزير والقرد — وكان أندو مُنشغلًا بلعق جانب مِخلَبه وتبليل وجهه حتى يُخفِّف ألم جراحه والتهابها. بعد هذا ذهب وجلس على مقربة من مدخل الكهف، يَرمش بعينه السليمة وهو ينظر إلى شمس بعد الظهيرة، ويُفكِّر.

قال أخيرًا: «أنا لم أشعر بمثل هذه المفاجأة في حياتي من قبل. إنها أعجب الحيوانات. تهجم عليَّ!»

قالت الدبة من الظلام في الخلف: «أنا لا أُحبهم.»

«إنها أضعف أنواع الكائنات التي رأيتُها على الإطلاق، فلا يُمكنني تخيُّل ما سيئول إليه العالم. أرجلُهم نحيلة وهزيلة ... أتساءل كيف يُدفئون أنفسهم في الشتاء؟»

قالت الدبة: «على الأرجح لا يفعلون.»

«أعتقد أنهم نوعٌ من القِرَدة به خطأ ما.»

قالت الدبة: «إنه تغيُّر.»

ثم سادَت فترة صمت.

قال أندو: «إن الأفضلية التي حصَل عليها كانت مجرَّد صدفة، فهذه الأشياء تَحدث أحيانًا.»

ردَّت الدبة: «أنا لا أفهم، لماذا تركَته؟»

كانت هذه المسألة قد خضعَت للمناقشة مِن قبلُ وسُوِّيت؛ ولذلك ظلَّ أندو — لكونه دُبًّا له خبرة — صامتًا لفترة. بعد ذلك واصَل الحديث في جانب آخر من الموضوع؛ فقال: «إن لدَيه مِخلَبًا، مِخلَبًا طويلًا بَدا أنه ظهر أولًا في أحد كفَّيه، ثم في الآخر. مِخلَبًا واحدًا فقط. إنها كائنات غريبة للغاية؛ والشيء المُضيء أيضًا، الذي يبدو أنه يوجد لدَيهم — مثل الوهج الذي يظهر في السماء في أثناء النهار — غير أنه يَقفِز في جميع الأنحاء، إنه يَستحق فعلًا المشاهَدة. إنه شيء له جذر أيضًا، مثل العُشب عندما يكون الجو عاصفًا.»

سألت الدبة: «هل يعضُّ؟ إذا كان يعضُّ فإنه لا يُمكن أن يكون نباتًا.»

قال أندو: «لا، أنا لا أعرف. لكنه أمرٌ مُثيرٌ للفضول على أيِّ حال.»

قالت الدبة: «أتساءل إذا كان طَعمُهم جيدًا.»

رد أندو بنهم: «يبدو عليهم ذلك.» كان دبُّ الكهوف، مثل الدب القطبي، آكلًا للحم على نحوٍ لا يُمكنه أن يبرأ منه؛ فهو لا يَتناول الجذور أو العسل.

استغرَق الدُّبان في التأمل لفترة، ثم واصَل أندو علاجه البسيط لعينه. اشتدَّ ضوء الشمس على المنحدر الأخضر أمام مدخل الكهف دفئًا في لونه وحرارته، حتى أصبح لونه كالكهرمان الأحمر.

قال دبُّ الكهوف: «إنه شيء مُثيرٌ للفضول، النهار، أعتقد أنه يستمر لفترة طويلة للغاية. وهو غير مُناسب تمامًا للصيد، إن الإضاءة الشديدة تؤلم عيني دومًا، كما أني لا أستطيع الشمَّ جيدًا في النهار.»

لم تَردَّ الدبة، بل صدر صوتُ مضغٍ مُنتظِم من الظلام؛ فقد عثَرت على عظمة. تثاءب أندو، وقال: «حسنًا.» وسار ببطء نحو مدخل الكهف، ووقَف وأخرج رأسه منه؛ ليَفحص المساحة التي تُشبه المسرح الروماني أمامه. واكتشف أنه يتحتَّم عليه تدوير رأسه دورة كاملة حتى يرى الأشياء التي توجد على جهته اليُمنى. لا شك أن هذه العين ستَتحسَّن في الغد.

تثاءب مرةً أخرى. وكان ثمَّة نقرٌ فوق رأسه، ثم طارت كتلة كبيرة من الطباشير من واجهة المُنحدَر، وسقطت أمامه على بُعد ياردة منه، وتكسَّرت إلى عشرات الشظايا غير المتساوية. روَّعه هذا بشدة.

عندما تعافى بعض الشيء من الصدمة، ذهَب وجعل يشمُّ بفضول القِطَع التي تُمثِّل تلك القذيفة التي سقطَت. كان لها مذاق مميَّز، يُذكِّره على نحوٍ غريب بالحيوانَين الشاحبَين على الحافَة الصخرية. انتصب في جلسته وضرب القطعة الأكبر بكفه، ودار حولها عدة مرات محاولًا العثور على إنسان حولها في مكانٍ ما …

عندما حلَّ المساء نزل إلى أسفل شِعب النهر ليرى إن كان بإمكانه التخلُّص من أيٍّ من قاطني الحافَة الصخرية. كانت الحافَة خالية، ولم تكن توجد أيُّ علامات على الشيء الأحمر، لكن لكونه جائعًا لم يتجوَّل طويلًا هذه الليلة، استمر ليُمسك بأُيَّل أحمر صغير. نسيَ أمر الحيوانات الشاحبة، وعثر على أُيَّل صغير، لكنَّ أمه كانت بالقُرب منه وحاربَت حربًا شعواء من أجل صغيرها. اضطُرَّ أندو لترك الأُيَّل الصغير، لكن بما أنها كانت مُنفعلة بشدة قرَّرت المكوث لتشنَّ هجومًا، وفي النهاية وجَّه لكمةً لها بكفِّه على أنفها؛ ومِن ثم أمسك بها. كان اللحم أكثر لكن طعمه ليس شهيًّا، وحصلت الدُّبة، عندما خرجت من الكهف، على حصتها. وفي فترة بعد الظهيرة في اليوم التالي، حدَث أمرٌ غريب بما يَكفي لإثارة الفضول؛ فقد سقط حجرٌ يُشبه الحجر الأبيض الأول وتحطم تمامًا مثل الحجر السابق.

أما تصويبُ الحجر الثالث، الذي سقط في الليلة التالية، فكان أفضل؛ فقد ارتطم بجُمجمة أندو التي لم تكن تتوقَّع الأمر، وأحدَث صوتًا عاليًا ترَدَّد صداه إلى أعلى المنحدر، وتبعثَرت الشظايا البيضاء راقصةً في جميع أنحاء المِنطقة المحيطة. أما الدُّبة التي جاءت وراءه وظلَّت تشمُّه بفضول، فقد وجدته مُستلقيًا في حالة غريبة، وكان رأسه رطبًا وعلى غير ما يُرام. كانت الدبة صغيرةً في السن، وعديمة الخبرة، وبعدما ظلَّت تشمُّه لبعض الوقت وتلعَق جسمه قليلًا، قرَّرت أن تتركه حتى تمر هذه الحالة الغريبة، وذهبَت لتَصطاد وحدها.

بحثَت في كل مكان عن ابن أنثى الأُيَّل الأحمر التي قتَلاها منذ ليلتَين، وعثرت عليه. لكنها كانت تَصطاد وحدها دون أندو، وعادَت في اتجاه الكهف قبل بزوغ الفجر. كانت السماء رمادية اللون وغائمة، وكانت الأشجار أعلى الشِّعب سوداء اللون وغير مألوفة، وخطَر على تفكيرها النموذجي للدِّبَبة شعورٌ غامض بحدوث أشياء غريبة وكئيبة. رفعَت صوتها ونادت على أندو باسمه. أعادت جوانب الشِّعب ترديد صدى ندائها.

ومع اقترابها من الكهف رأت في الضوء الخافت، وسمعت، بعض بنات آوى تركض، وبعد هذا مباشرة سمعت عُواء ضبع، وتبعه صعود عشرات الحيوانات الخرقاء إلى أعلى المنحدر، وتوقَّفت هذه الحيوانات وصاحَت بسخرية، فحملت الرياح إليها كلماتها الساخرة: «سيد الصخور والكهوف — يا-هاه!» وفجأة أصبح الشعور الكئيب في ذهن الدبة حادًّا، فدلفت عبر المساحة التي تُشبه المسرح الروماني.

قالت الضباع: «يا-هاه!» وأعادتها: «يا-هاه!»

لم يكن دبُّ الكهوف مُستلقيًا على الحالة التي كان عليها بالضبط؛ لأن الضِّباع كانت مُنهمِكة في الْتِهامه، وظهرت أضلاعه بيضاء في أحد الأماكن. وانتشرت في المرج من حوله الشظايا المحطَّمة من الكتل الثلاث الضخمة من الطباشير، وكان الهواء يَعبق برائحة الموت.

تسمَّرت الدبة في مكانها، فحتى الآن، كانت فكرة تعرُّض أندو الضخم العظيم للقتْل فوق قُدرتها على التصديق. ثم سمعت من فوقها مِن بعيد صوتًا، صوتًا غريبًا، يُشبه قليلًا صياح الضِّباع لكنه رخيم وأقل حدة. نظرت لأعلى بعينيها التي أعماها إلى حدٍّ ما بزوغ الفجر، ولم تكن رُؤيتها واضحة، وبدأ أنفها تَرجف. هناك، فوق حافة المنحدر، فوقها بكثير تحت الفجر الوردي المُشرِق، كان ثمَّة شيئان أسودان أشعثان مُستديران؛ رأْسا أودينا وأوج-لومي، يَصيحان في سخرية. لكن رغم عدم قُدرتها على رؤيتهما، كان باستطاعتها سماعهما بوضوح، وبدأت تَفهم على نحوٍ خافت، ودبَّ في قلبها شعورٌ جديد بشرورٍ وشيكة.

بدأت تفحص الأجزاء المحطَّمة من الطباشير التي توجد حول أندو. وقفت ساكنة لفترة من الوقت، تَنظر حولها وتُصدر صوتًا مُنخفِضًا مُتواصِلًا أشبه بالنُّواح. بعد ذلك عادت مُتشكِّكة لأندو لتُحاول لآخر مرة إيقاظه.

(٣) الفارس الأول

في الأيام التي سبَقت قتْل أوج-لومي لدبِّ الكهوف الكبير قلَّما كانت توجد خلافات بين الخيل والبشر. في الواقع كانوا يَعيشون بعيدًا بعضهم عن بعض؛ فكان البشر يَعيشون في مُستنقعات النهر والأجَمات؛ والخيولُ في الأراضي المرتفعة العُشبية الواسعة التي تقع بين أشجار الكَستَناء والصَّنَوْبر. في بعض الأحيان كان مُهرٌ صغير يأتي شاردًا إلى المستنقعات فلا يستطيع التحرُّك؛ ومِن ثم يصير وجبة للبشر بعد ضربه بحجر الصوَّان، وأحيانًا تَعثر القبيلة على واحد قتَله أسد، فتُبعد عنه بنات آوى، وتُقيم عليه وليمة احتفالية والشمسُ في كبد السماء. كانت خيول هذه الأيام الغابرة ذات مفاصل ضعيفة عند الحوافر، وكانت داكنة اللون، وذيلها خشن ورأسها كبير. كانت تتجه في كل ربيعٍ نحو الشمال الغربي إلى داخل الإقليم، بعد طيور السُّنونو وقبل أفراس النهر، مع زيادة طول العُشب في الأراضي المُنخفضة الواسعة المُمتدَّة. كانت تأتي في مجموعات صغيرة، وهكذا كان كل قطيع يتكون من فحل وفرسَيْن أو ثلاثة ومُهر أو ما شابه، ويحتلُّ مكانًا في الإقليم، وكان يعود أدراجه مرةً أخرى عندما تكون أشجار الكَستَناء صفراء وتأتي الذئاب إلى أسفل جبال والدن.

كان من عادتها أن تَرعى في الأماكن المفتوحة ولا تذهب إلى الظل إلا عند اشتداد حرارة اليوم. وكانت تتجنَّب المساحات الواسعة من النباتات الشائكة وأشجار الزان، وتُفضِّل المجموعات المُنعزلة من الأشجار الخالية من الكمائن؛ ومن ثم كان يصعب السيطرة عليها. لم تكن الخيول أبدًا مُقاتلة، فكانت لا تستخدم حوافرها وأسنانها إلا مع بعضها، لكن في الإقليم الفسيح، بمجرَّد إخافتها، لا يَجرؤ كائن حي على الاقتراب منها، ربما باستثناء الفيل إن شعر بحاجته لفعل هذا. وفي تلك الأيام بدا البشر كائنات غير ضارَّة إلى حدٍّ بعيد. فلم يهمس أحدٌ لهذا النوع من الحيوانات بمعلومات تنبُّؤية حول العبودية البغيضة التي تَنتظره، وحول السوط والْمِهماز واللجام، والأحمال الرهيبة والشوارع الزَّلِقة، والطعام الغير الكافي، وساحة تاجر الخيول، التي ستحلُّ محل المروج الخضراء الواسعة وحرية الأرض.

في مُستنقَعات نهر واي في الأسفل لم يرَ أوج-لومي وأودينا الخيول عن قرب قط، لكنهما يَرونها الآن كلَّ يوم حيث خرَج الاثنان من وَكرِهما على الحافَة الصخرية في الشِّعب، خرجا معًا بحثًا عن الطعام. كانا قد عادا إلى الحافَة الصخرية بعدما قتلا أندو؛ إذ لم يكونا خائفَين من الدبة؛ فقد أصبحَت الدبة تخاف منهما، وعندما تشمُّ رائحتهما تَتنحَّى جانبًا. ذهب الاثنان معًا في كل مكان؛ فمنذ أن تركا القبيلة لم تكن أودينا خليلة أوج-لومي بقدر ما كانت رفيقتَه؛ حتى إنها تعلَّمت الصيد، بقدر ما تَستطيع أيُّ امرأة. كانت في الواقع امرأةً مُذهلة؛ فكان يجلس لساعات يُراقب وحشًا أو يخطط لصيد في رأسه الأشعث، وهي تَجلس بجواره، ترمقه بعينَيها اللامعتَين، ولا تُقدِّم أيَّ اقتراحات مزعجة، ساكنة تمامًا كأي رجل. امرأة رائعة!

كان يوجد مرجٌ عُشبِي مفتوح على قمة المُنحدَر، ثم تأتي أشجار الزان، وبعد عبور أشجار الزان يَصل المرء إلى حافة المساحة العشبية الفسيحة، ثم يرى الخيول. وهنا على حافة الغابة ونبات السَّرخس توجد جحور الأرانب، وهنا بين أوراق السَّرخس كانت أودينا وأوج-لومي يَستلقِيان مُستعدَّين بحجارة الرشق، حتى يخرج الرفاق الصِّغار لتناول الطعام واللعب في وقت الغروب. وبينما كانت أودينا تجلس، كتمثال صامت مُتيقِّظ، تُراقب الجحور، كانت عينا أوج-لومي تَنظر بعيدًا عبر المروج نحو هؤلاء الغرباء الرائعين المُنشغِلين بالرعي.

أُعجب، على نحوٍ غامض، ببهائها ورشاقة حركتها. ومع انخفاض الشمس في وقت المساء، ومرور حرارة اليوم، كانت الخيول تزداد نشاطًا وكانت تُسابق بعضها، وتَصهل

وتُراوغ بعضها وتهزُّ أعرافها، وتتحرَّك في منحنيات رائعة، تَقترب فيها في بعض الأحيان منهما بحيث يُصبح صوت خطواتها على الأرض شبيهًا بصوت الرعد المُتسارِع. بدت رائعة للغاية لدرَجة أن أوج-لومي أراد الانضمام لها بشدة. وأحيانًا كان أحدُها يتدحرَج على المرج، رافعًا حوافره الأربعة نحو السماء، الأمر الذي بَدا مُخيفًا وأقل جاذبية بكثير بالتأكيد.

ورَدت تخيُّلات مُشوَّشة على ذهن أوج-لومي وهو يراقب — وبسبب هذه التخيُّلات نجا أرنبان من الموت؛ أما أثناء النوم فكان ذهنُه يَصير أكثر صفاءً وجرأة — وكان هذا هو الحال في تلك الأيام. حلم أنه اقترب من الخيل وحارَبَها؛ إذ كان يَضرب حوافرها بالحجارة، لكن الخيول تحوَّلت إلى رجال، أو على الأقل رجال برءوس خيول، واستيقظ وهو يتصبَّب عرَقًا باردًا من الخوف.

إلا أنه في صباح اليوم التالي، بينما كانت الخيول ترعى، صهل فرس، ورأت الخيول أوج-لومي وهو قادمٌ مع الريح. توقَّفت جميعها عن الأكل وراقبته. لم يكن أوج-لومي قادمًا نحوها، بل كان يتمشَّى دون اهتمام عبر الأرض المفتوحة، وهو ينظر إلى كل شيء في العالم ما عدا الخيول. وضَع ثلاث ورقات من السَّرخس داخل شعره الملبد؛ مما أعطاه مظهرًا مميَّزًا، ومشى ببطء شديد. قال الحصان الزعيم، الذي كان قويًّا، لكن عديم الخبرة: «والآن، ما هذا؟»

واستكمل قائلًا: «يبدو مثل النِّصف الأول من حيوان أكثر من أيِّ شيء آخر في العالم؛ قدمان أماميتان دون مؤخرة.»

قالت أكبر الإناث سنًّا: «إنه مجرَّد أحد القرود الوردية اللون هذه، نوعٌ من قرود النهر، إنها شائعة للغاية في السهول.»

واصل أوج-لومي تقدُّمه اللامبالي، وكانت أكبر الإناث سنًّا مُندهشةً من غياب الدافع في تقدمه.

قالت أكبر الإناث سنًّا: «أحمق!» بأُسلوب حاسم سريع، وواصلَت الرعي، وحذا الحصان الزعيم والفرس الثانية حذوها.

قال الْمُهر ذو الخط: «انظروا! إنه يَقترب.»

تحرَّك أحد المهور الأصغر سنًّا بحركات مرتبكة؛ فجلس أوج-لومي القرفصاء وجعل يُراقب الخيول بثبات. وبعد فترة قصيرة تأكَّد من أنها لم تكن تقصد الهرب أو أيَّ أفعال عدائية، فبدأ يُفكِّر في إجرائه التالي. لم يكن يَشعر برغبة في القتل، لكنه كان يَحمِل فأسه معه، وكانت رُوح المغامرة تتملكه، فكيف يمكن للمرء قتل أحد هذه المخلوقات؟ هذه المخلوقات رائعة الجمال!

رأته أودينا، التي كانت تُراقبه بإعجاب وتخوف من داخل غطاء السَّرخس، وهو يتحرَّك الآن على يدَيه ورجلَيه، ويتقدم على هذا النحو مرةً أخرى. إلا أن الخيول كانت تُفضِّله وهو يسير على قدمَين أكثر من كونه يسير على أربع، ورفَع الحصان الزعيم رأسه وأعطى الأمر بالتحرُّك. ظن أوج-لومي أنها ستذهَب إلى الأبد، لكن بعد الركض لدقيقة عادت مرةً أخرى في شكل قوس واسع، ووقفت تشمُّه. ثم نظرًا لاختفائه وراء جزء مُرتفِع من الأرض تفرَّقت الخيول متقدِّمة يقودها الحصان الزعيم والتفَّت حوله مقتربة منه.

كان يجهل تصرُّفات الخيل تمامًا، كما كانت هي تجهل تصرُّفاته. وبدا في هذه المرحلة أنه ذُعِر؛ فقد كان يعلم أن هذا النوع من الترصُّد سيجعل الأيائل الحمراء أو الجاموس يَهجم، إن استمر. على أيِّ حال رأته أودينا يَقفز ويُسرع نحوها وهو مُمسك بأوراق السَّرخس في يده.

وقفَت، وابتسم هو حتى يُظهِر أن الأمر كله كان مزاحًا هائلًا، وأن ما فعله كان بالضبط ما خطَّط لفعله من البداية. وهكذا انتهت الواقعة، لكنه انهمك في التفكير طوال هذا اليوم.

وفي صباح اليوم التالي، كان هذا المخلوق الأحمَق ذو اللون البُني الفاتح وشعر رأس يُشبه الأسد، بدلًا من ممارسة الرعي أو الصيد الذي خُلِقَ من أجله، يطوف حول الخيول مرةً أخرى. كانت الأنثى الأكبر سنًّا تزدريه في صمت، قائلةً: «أفترضُ أنه يُريد تعلُّم شيء منا. لندعه يفعل!» وفي اليوم التالي فعَل الشيء نفسه مرةً أخرى. قرَّر الحصان الزعيم أنه لا يعني أيَّ شيء على الإطلاق. إلا أن أوج-لومي في الواقع، الذي كان أول إنسان يَشعُر بسِحر الخيل الغريب الذي يُبهر أعيننا حتى يومنا هذا، كان يعني الكثير؛ فقد أُعجب بها بشدة، وأخشى أنه كانت لديه مبادئ التكبُّر بداخله، وكان يُريد البقاء بالقرب من هذه الحيوانات ذات الانحناءات الجميلة. ثم كانت ثمَّة مفاهيم مُبهمَة عن القتل؛ لو أنها تسمح له فقط بالاقتراب منها! لكنها وضعت حدًّا بينهما، كما اكتشَفَ هو، على بُعد خمسين ياردة، فإذا اقترب منها، تتحرَّك مُبتعدة بوقار. وأنا أفترض أن الطريقة التي أعمى بها أندو هي التي دفعَته إلى التفكير في القفز على ظهر أحدها. لكن على الرغم من خروج أودينا إلى المساحة المفتوحة أيضًا بعد فترة من الوقت، وقيامهما ببعض الترصُّد عن بعد، توقفت الأمور عند هذا الحد.

ثم في يوم لا يُنسى خطَرت فكرة جديدة بعقل أوج-لومي؛ فالحصان يَنظر إلى الأسفل وأمامه لكنه لا ينظر إلى الأعلى. فلا توجد حيوانات تنظر إلى الأعلى؛ فلديها فطرة سليمة

للغاية؛ فهذا المخلوق الغريب، الإنسان، هو وحده الذي قد يُضيِّع ذكاءه في النظر نحو السماء. لم يَقُم أوج-لومي بأيِّ استنتاجات فلسفية، لكنه لاحظ أن هذا هو ما يَحدث؛ وعليه، فقد قضى يومًا مُرهِقًا في شجرة زان كانت موجودة في المساحة المفتوحة، بينما كانت أودينا تترصَّد. كانت الخيول معتادة على الذهاب إلى الظل عند اشتداد الحرارة في فترة بعد الظهيرة، لكن في هذا اليوم كانت السماء ملبَّدة بالغيوم، ولم تفعل الخيول هذا، على الرغم من قلق أودينا البالغ.

بعد يومَين من هذا، حقق أوج-لومي رغبته؛ فقد كان يومًا شديد الحرارة، وأعلن الذباب المُتكاثِر عن نفسه. توقفت الخيول عن الرعي قبل الظهيرة، وذهبت إلى الظل أسفل شجرة الزان، ووقفَت في أزواجٍ، وأنفُ الواحد في ذيل الآخر، محرِّكة شفتَيها.

كان الحصان الزعيم، بفضل أعقابه، الأقرب إلى الشجرة. وفجأة صدر صوت حفيف، صوتٌ مكتوم … ثم ضربه حجر صوَّان مسنون وحاد على وجنته. تعثَّر الحصان الزعيم، وسقط على إحدى ركبه، ثم قام على قدمه، وركض مبتعدًا كالريح. كان الهواء عابقًا بالدوَّامات الترابية التي أحدثتها أطراف الخيول، ووثْب الحوافر، وصهيل التحذير. قُذف أوج-لومي مسافة قدم في الهواء، وسقط على الأرض مرةً أخرى، ثم رُفع مرةً أخرى، وضُرب في بطنه ضربة عنيفة، ثم أطبقَت ركبتاه على شيء بينهما. وجد نفسه مُتشبِّثًا بركبتيه وقدمَيه ويدَيه، ومنطلقًا بعنف وهو يهتزُّ بشدة في الهواء، وذهَبت فأسه، السماء وحدها تعلم إلى أين. قالت الغريزة الأم: «تمسَّك جيدًا.» وهذا ما فعله.

أدرك وجود الكثير من الشعر الخشن في وجهه، بعضٌ منه بين أسنانه، ومرج أخضر يمر أمام عينيه. رأى كتفَ الحصان الزعيم، ضخمة وملساء، مع تحرك العضلات برشاقة تحت جلده. أدرك أن ذراعَيه كانتا حول عنقه، وأن الاهتزازات التي كان يتعرض لها كان لها إيقاع محدَّد.

ثم أصبَح وسط هجوم جامح لجذوع الأشجار، ثم وجد الخوص والسَّرخس من حوله، ثم المزيد من المرج المفتوح. ثم مرَّا على طريق طويل من الحصى، ووجد الحصى الصغير يَتطاير من الجانبين حولهما في الاتجاه المعاكس لاتجاه عَدْو الحوافر السريعة. بدأ أوج-لومي يشعر بإعياء ودُوار مُرعِب، لكنه لم يكن من النوع الذي يتخلى عن كل شيء لمجرَّد شعوره ببساطة بعدم الراحة.

لم يَجرؤ على إفلات قبضته، لكنه حاول جعل نفسه يَشعر براحة أكبر؛ فتخلى عن عناقه لرقبة الحصان، وأمسك بعرفه بدلًا من ذلك. جعل ركبتيه تنزلقان إلى الأمام، وتحرك بجسمه إلى الخلف؛ فأصبَحَ في وضعية جلوس حيث تتباعَد أطرافه الأربعة.

كان عملًا عصبيًّا، لكنه استطاع فعله. وأخيرًا جلس مُنفرِجَ الساقَين تمامًا، يلهث في الواقع، وينتابه الشك، لكن حدة الطَّرْق المُخيف الذي كان جسمه يتعرَّض له قد خفَّت بكل تأكيد.

لمَّ أوج-لومي شتات عقله مرةً أخرى. بدَت له السرعة رهيبة، لكن كان ثمة نوع من النشوة على وَشكِ أن يَطرد خوفه الجنوني الأول. اندفع الهواء نحوه، عذبًا رائعًا، وتغير إيقاع الحوافر وانكسَر، ثم عاد إلى ما كان عليه مرةً أخرى. كانا على المرج الآن؛ أرض فضاء واسعة، وكانت أشجار الزان على بُعد مِائة ياردة على الجانبَين، وازدان شريطٌ نَضِرٌ من النباتات الخضراء بالزهور الوردية اللون، وتخلَّلته المياه الفضية هنا وهناك، مُتعرِّجة تحته في المنتصف. ومن بعيد كانت تظهر لمحة من وادٍ أزرق، بعيدًا للغاية. ازدادت النشوة؛ فكانت هذه أول مرة يَشعر فيها الإنسان بسرعة انطلاق الخيل.

بعد هذا جاءت مساحة واسعة تَتناثر فيها الأيائل السمراء الأوروبية السريعة الحركة المُنتشرة هنا وهناك، ثم بضع من بنات آوى، ظنَّت كلها خطأً أن أوج-لومي أسد، وجاءوا يُهرعون وراءه. وعندما رأت أنه ليس أسدًا واصلت ملاحقته بدافع الفضول. استمر الحصان في الركض، تتملَّكه فكرة واحدة؛ هي الهرب. وتبعته بناتُ آوى وأُذنها منتصبة لأعلى، وهي تتساءل بنباحها السريع. قال أول ابن آوى: «مَن سيَقتل الآخر؟» فقال الثاني: «الحصان هو الذي سيُقتَل.» أصدروا العُواء الذي يعني الملاحقة، وردَّ الحصان على هذا كرد الخيول في أيامنا هذه على المِهماز.

انطلقوا كلهم مُندفعين، مثل إعصار صغير في يوم هادئ، مُتسبِّبين في فزع الطيور، واندفاع عشرات الأشياء المُباغَتة إلى الاحتماء، وطيران عدد هائل من ذبابات الروث الساخطة، وتحطيم الأزهار الصغيرة المُتفتِّحة، وتسويتها مرةً أخرى بمرجها الأبوي. ظهرت أشجار مرةً أخرى، ثم تناثُرٌ للماء؛ إذ كان الحصان يَعبُر فوق بركة؛ ثم خرج أرنبٌ برِّيٌّ مندفعًا من كتلة من الأعشاب تحت حوافر الحصان الزعيم مباشرةً، وتركتهما بنات آوى على الفور. اخترقا بعد ذلك مساحة مفتوحة مرةً أخرى، مساحة خضراء واسعة من منحدرات التلال، تُشبه تمامًا المنخفضات العُشبية التي تقع جهة الشمال في عصرنا الحالي من إبسوم ستاند.

انتهى أول هروب عنيف للحصان الزعيم منذ وقت طويل، وصار الآن مُنهمِكًا في ركض منتظم، وكان أوج-لومي، رغم إصابته بكدمات بالغة وعدم تأكُّده على الإطلاق من المستقبل، في حالة من الاستمتاع البالغ. ثم حدَث الآن تطور جديد؛ إذ قلت السرعة مرةً أخرى، فقد أتى الحصان الزعيم على مُنحنًى قصير، وتوقف تمامًا.

أصبح أوج-لومي في حالة تأهُّب، وتمنى لو كان معه حجر صوَّان، إلا أن حجر الرشق الصوَّان الذي كان يَحمله في حزام حول خصره — مثل الفأس — تَعْلم السماءُ وحدَها أين ذهب. أدار الحصان الزعيم رأسه، ورأى أوج-لومي عينًا وأسنانًا. حرَّك ساقه إلى وضع آمن، وضرَبه على وجنته بقبضته. عندها سقط رأسه في مكان كأنه اختفَى من الوجود، وارتفع الظهر الذي كان يجلس عليه إلى الأعلى مثل قُبة. مَارس أوج-لومي الفعل الغريزي نفسه مرةً أخرى؛ فتمسَّك بشدة؛ فأطبق بركبتيه وقدميه، وبدا رأسه يَنزلق نحو المرج. كانت أصابعه مُتمسِّكة بعُرف الحصان، وأنقذه الشعر الخشن للحصان. انخفض السطح المائل الذي كان يجلس فوقه مرةً أخرى، ثم قال أوج-لومي بذهول: «ووب!» وأصبح الانحدار إلى أعلى في الاتجاه المعاكس. إلا أن أوج-لومي كان أقرَبَ بآلاف الأجيال للكائنات البُدائية منه للإنسان؛ ولم يكن لقردٍ التشبُّث أفضل مما فعل هو شخصيًّا. كما أن الأسد كان يُدرِّب الحصان لعدد لا حصر له من الأجيال ضد أساليب تحريك الظهر من جهة لأخرى ورفعه. إلا أنه رفَس بمهارة شديدة، وقفَز قفزةً لأعلى مع تقويس ظهره ببراعة بالغة. وفي خمس دقائق عاش أوج-لومي عُمرًا. فإذا نزَل عن ظهره فإن الحصان سيقتله، كان على يقينٍ من ذلك.

بعد هذا قرَّر الحصان الزعيم الالتزام بخُططه القديمة مرةً أخرى، وفجأة انطلَق راكضًا. اتجه إلى أسفل المُنحدر، مسرعًا في الأماكن الشديدة الانحدار، ولم يكن يَنحرف يمينًا ولا يسارًا، وانطلَقا إلى الأسفل؛ فاختفت الأرض المنبسطة الواسعة للوادي وراء أشجار البلُّوط والزعرور التي تُناوشهما. لفَّا حول حفرة مفاجئة بها بركة لنبعِ ماء، وكثير من الأعشاب والشُّجَيرات الفِضية اللون. ازدادت الأرض ليونة والعشب طولًا، وعلى الجانب الأيسر والأيمن انتشَرت شُجيرات شهر مايو، التي لم تزل مُزدانةً ببعض الأزهار التي لم تسقط بعد. اشتدت كثافة الشجيرات حتى أصبحت تَضرب الراكب المارَّ، وأصيب الحصان وراكبه بخدوش صغيرة، وخرجت من أجسامهما قطرات من الدماء. ثم فُتح الطريق مرةً أخرى.

حدثَت بعد ذلك مُغامَرة رائعة؛ فقد ارتفعَت صرخةٌ حادة مفاجئة من غضبٍ مُفرِط من بين الشجيرات، صرخةُ كائنٍ وقع عليه ظلمٌ بالغ، وظهر من خلفهما، محطِّمًا كل شيء في طريقه، كائن ضخم رمادي يَميل إلى الزرقة. لقد كان «ياا» وحيدَ القرن ذا القرن الكبير، في إحدى نوبات غضبه المُعتادة، مندفعًا بكامل طاقته، تمامًا مثل بقية جنسه. فقد أُفزع في أثناء تناوله للطعام؛ ومن ثم يجب أن يتعرَّض أحدٌ ما، أيًّا ما كان، للتمزيق والسحق.

انقضَّ عليهما من جهة اليسار، وعيناه الصغيرتان الماكرتان مُحمرَّتان، موجهًا قرنه الهائل إلى الأسفل، وذيله الصغير مُرتفع خلفه مثل الصاري. للحظة فكَّر أوج-لومي في الانزلاق عن ظهر الحصان والهرب، لكن انظر! فقد أصبحَت الخطوات المُتقطِّعة للحوافر أسرع، وبدا أن وحيد القرن بأقدامه الصغيرة المُمتلئة المسرعة يَنزلق كما رآه أوج-لومي بجانب عينيه عندما نظر إلى الخلف. وفي خلال دقيقتَين كانا داخل شجيرات شهر مايو، وخرَجا إلى المساحة المفتوحة، وهما يَنطلقان بسرعة. استطاع لفترة من الوقت سماع الخطوات الثقيلة التي تُلاحقهما وهي تتقهقَر إلى الخلف، ثم أصبح الوضع كما لو أن «يا!» لم يَفقد أعصابه، وكما لو أنه لم يوجد من الأساس.

لم تتعثَّر الخطوات قط، واستمَرا في الركض قاطعَين الأراضي.

شعر أوج-لومي في تلك اللحظة بسعادة غامرة؛ وكانت السعادة في تلك الأيام تعني الإهانة. قال أوج-لومي: «يا-ها! يا ذا الأنف الكبير.» وهو يحاول مدَّ عنقه إلى الخلف ليرى لمحة بعيدة من هذا الكائن الذي يُطاردهما. وقال: «لماذا لا تحمل حجر الضرب معك في قبضتك؟» وأنهى كلامه بصيحة ثائرة.

إلا أن الصيحة كانت كارثية؛ فقد كانت بالقرب من أذن الحصان؛ ونظرًا لكونها غير مُتوقَّعة على الإطلاق، أفزَعت الحصان بشدة. فقد جَفَل بعنف، ووجد أوج-لومي نفسه فجأة في وضع غير مريح مرةً أخرى؛ فقد وجد نفسه مُتدليًا ومتعلقًا بالحصان، بذراع واحدة وركبة واحدة.

كان باقي الطريق جديرًا بالإعجاب لكنه كان بغيضًا. كان المنظر في الأساس منظر السماء الزرقاء، وكان ممزوجًا بأكثر المشاعر الجسدية البغيضة. وأخيرًا تعرَّض للضرب من شجيرة من نبات الزعرور الشائك؛ فترك الحصان.

ارتطم بالأرض على وجنته وكتفه، ثم، بعد حركات سريعة معقَّدة وغريبة، ارتطم بها مرةً أخرى في نهاية عموده الفقري. رأى ومَضات وشرارات من الضوء والألوان. بدَت الأرض كما لو كانت تقفز من تحته تمامًا كما كان يفعل الحصان. بعد هذا اكتشف أنه كان يَجلس على مرج أخضر، يَبعد ست ياردات عن الأجَمة، وأمامه كانت مساحة من العُشب، تزداد اخضرارًا، وعدد من البشر على مسافة بعيدة، وكان الحصان يلفُّ وهو يَركض ركضًا أنيقًا على مسافة بعيدة جدًّا على جهة اليمين.

كان البشر على الجهة المُقابلة من النهر، وكان بعضُهم لا يزال في الماء، لكنهم جميعًا كانوا يَركضون بأسرع ما يُمكنهم. لم يكن اقتراب وحشٍ قوي يستطيع تقطيعهم إربًا

بالشيء الجديد الذي يَخشونه. جلس أوج-لومي لدقيقة كاملة يُشاهدهم بروحٍ مُنبهِرة بشدة. فإن مُنحنى النهر، والهضْبة التي تظهر من بين القصب والسَّرخس الملكي، وخيوط الدخان الرفيعة الصاعدة إلى السماء، كانت كلها مألوفة تمامًا له. لقد كان هذا مكان المعيشة «لأبناء أويا»؛ أويا الذي هرَب منه مع أودينا، والذي نصَب له كمينًا داخل غابات الكَستَناء وقتله بـ «الفأس الأولى».

هبَّ واقفًا على قدمَيه، وكان لا يزال مصابًا بالدوار بسبب سقوطه، وبينما كان يفعل هذا، التفت الهارِبون المُتفرِّقون ورأَوْه. أشار بعضهم إلى الحصان المُتقهقِر وثرثروا. سار ببطء نحوهم وهو يُحدِّق فيهم؛ فقد نسيَ الحصان، ونسي كدماته، في خضمِّ اهتمامه المُتزايد بهذه المواجهة. كان عدد الموجودين منهم أقل مما كان؛ فافترض أن الآخَرين لا بد أنهم اختبئوا، ولم تكن كومة السراخس أو النار الليلية مرتفعة كثيرًا. كان من المفترض أن يَجلس فاو بالقُرب من كومة حجر الصوَّان، لكنه تذكَّر أنه قد قتَل فاو. ومع عودته فجأة إلى هذا المشهد المألوف، بدا الشِّعب والدِّببة وأودينا أشياءَ بعيدة، أو بالأحرى أشياء من حُلم.

توقَّف عند ضفة النهر، ووقف ينظر إلى القبيلة. كانت قدراته الحسابية لا تكاد تُذكر، لكنه كان متأكِّدًا من أنهم أقل عددًا. ربما كان الرجال في مكان بعيد، لكن عدد النساء والأطفال كان أقل. أطلَق صيحة العودة إلى الوطن؛ فقد كان عراكُه مع أويا وفاو، وليس مع الآخرين. صاح قائلًا: «أبناء أويا!» ردُّوا عليه باسمه بشيء من الخوف بسبب أسلوب عودته الغريب.

ظلُّوا يَتحدثون معًا لفترة من الوقت، ثم تحدَّثت سيدة عجوز بصوت مرتفع وردَّت عليه قائلة: «إن زعيمنا أسد.»

لم يفهم أوج-لومي هذه المقولة؛ فردَّ عليه كثير منهم معًا: «أويا سيعود، سيعود مثل الأسد؛ فزعيمنا أسد. سيأتي في الليل، وسيَذبح مَن يريد، لكن لن يستطيع أحد غيره قتلنا، يا أوج-لومي، لن يستطيع أحدٌ غيره قتلنا.»

ما يزال أوج-لومي لا يفهم شيئًا.

«إن زعيمنا أسد؛ فلم يعُد يتحدَّث بعد الآن مع البشر.»

وقف أوج-لومي ينظر إليهم؛ فقد كانت تُراوِده أحلام، وكان يعلم أنه بالرغم من أنه قتَل أويا، فإن أويا لا يزال موجودًا، والآن هم يُخبرونه بأن أويا أسد.

فجأة التفتَت السيدة العجوز ذات البشرة المتغضِّنة الذابلة، سيدة حراس النار، وتحدَّثت بهدوء مع الجالسين بجوارها. كانت سيدة عجوزًا بالفعل؛ فقد كانت أولى زوجات

أويا، وترَكها تعيش لأكثر من السن الذي يُفترض بالنساء، على ما يبدو، الوصول إليه. كانت بارعةً من البداية، بارعةً حتى تستطيع إسعاد أويا والحصول على الطعام، والآن أصبحَت مستشارة رائعة. تحدَّثت بهدوء، وراقب أوج-لومي شكلها المليء بالتجاعيد عبر النهر بنفورٍ غريب. ثم نادت بصوت مرتفع قائلة: «تعالَ إلينا يا أوج-لومي.»

رفعَت فتاةٌ صوتها فجأة وقالت: «تعالَ إلينا يا أوج-لومي.» وبدءوا جميعًا يَصيحون: «تعالَ إلينا يا أوج-لومي.»

كان من الغريب تغيُّر أسلوبهم بعد نداء السيدة العجوز.

وقَف ثابتًا يُراقبهم جميعًا؛ فمن الجيد أن يُناديَ أحد عليك، وكانت الفتاة التي نادت عليه في البداية فتاةً جميلة، لكنها جعلته يُفكِّر في أودينا.

واصلوا الصياح: «تعالَ هنا، يا أوج-لومي.» وارتفع صوت المرأة العجوز مُتغضِّنة الوجه فوق أصواتهم جميعًا. وعندما سمع صوتَها عاد إلى التردُّد مرةً أخرى.

وقَف على ضفة النهر، أوج-لومي — «أوج المفكِّر» — وبدأت أفكاره تتشكَّل ببطء. الآن توقف البعض تباعًا كي يرَوْا ما سيَفعل. ففكَّر في العودة، وفكر في عدم العودة، وفجأةً كانت السيطرة لخوفه وحذره؛ فالتفَت دون أن يردَّ عليهم، وسار عائدًا نحو أشجار الزعرور الشائك البعيدة، من حيث جاء. عندها بدأت القبيلة بأكملها تَصيح عليه مرةً أخرى بلهفة شديدة. تردَّد وعاد، ثم واصل السير، ثم التفت مرةً أخرى، ثم نظر إليهم مرةً أخرى بعينَيه المضطربتَين وهم يُنادون عليه. وفي آخر مرة كان قد سار خطوتَين، قبل أن يوقفَه خوفه. رأَوْه يتوقَّف مرةً أخرى، ثم هز رأسه فجأةً واختفى بين أشجار الزعرور.

عندها رفع جميع النساء والأطفال أصواتهم معًا، ونادَوْا عليه في محاولة بائسة أخيرة.

بعيدًا عند أسفل النهر كانت أعواد البوص تتحرَّك في النسيم، حيث كان المكان مناسبًا لنوعية التغذية الجديدة للأسد العجوز، الذي اعتاد أكل الإنسان؛ لذا صنَع عرينه هناك.

وجَّهت المرأة العجوز وَجهها في هذا الاتجاه، وأشارت إلى أجمات نبات الزعرور الشائك، وصاحت: «أويا، ها هو عدوُّك يذهب إليك! إليك يذهب عدوُّك، يا أويا! لماذا تَلتهمنا مساءً؟ فقد حاولنا الإيقاع به! ها هو عدوُّك يذهب إليك، يا أويا!»

إلا أن الأسد الذي كان يَفترس أبناء القبيلة كان يأخذ قيلولته؛ فلم يسمع النداء. في هذا اليوم كان قد تعشَّى على إحدى الفتيات المُتلئات، وكان مِزاجه مرتاحًا هادئًا. لم يكن يُدرك فعليًّا أنه هو أويا وأن أوج-لومي هو عدوه.

وهكذا ركبَ أوج-لومي الحصان، وسمع لأول مرة عن أويا الأسد، الذي حلَّ محل أويا الزعيم، وكان يقتات على القبيلة. وفي أثناء عودته مسرعًا إلى الشِّعب، لم يعد عقله مشغولًا

بالحصان، بل بفكرة أن أويا ما يزال على قيد الحياة، وأنه إما أن يَقتُل أو يُقتَل. كان يرى مرارًا وتكرارًا صورة الجماعة المُتناقِصة العدد من النساء والأطفال وهم يَصيحون عليه أن أويا أسد، أويا أسد!

والآن بدأ أوج-لومي يركض خوفًا من أن يحلَّ الشفق عليه.

(٤) أويا الأسد

كان الأسد العجوز محظوظًا؛ فقد كانت القبيلة تَفتخر فخرًا خاصًّا بزعيمها، لكن هذا كان التعويض الوحيد الذي يَحصلون عليه من ذلك. جاء هذا الأسد في الليلة نفسها التي قَتَل فيها أوج-لومي «أويا الماكر»؛ ولذلك كانوا هم مَن أطلقوا عليه اسم أويا. كانت السيدة العجوز، حارسة النار، أول مَن أطلق عليه اسم أويا. أدى سقوط المطر إلى إخماد النار لتُصبح بصيصًا، وجعل هذه الليلة مظلمة. وفي أثناء حديثهم بعضهم مع بعض، ونظرهم بعضهم إلى بعض في الظلام، وتساؤلهم في خوف ماذا قد يَفعل أويا بهم في أحلامهم الآن بعد وفاته، سَمعوا الصدى المُتزايد لزئير أسدٍ قريبٍ منهم، ثم ساد الهدوء.

كتَموا أنفاسهم، حتى إن الأصوات الوحيدة تقريبًا كانت أصوات دقات المطر وارتطام قطرات المطر بالرماد. ثم بعد وقت طويل، سُمع صوت تحطُّم وصرخة رعب، وصوت زئير. هبُّوا واقفين، وصاحوا وصرخوا وركضوا في كل اتجاه، لكنهم لم يستطيعوا إشعال النار، وفي دقيقة كانت الضحية تُجَر عبر أشجار السَّرخس. كانت الضحية هي إرك، أخو فاو.

وهكذا جاء الأسد.

كان نبات السَّرخس في الليلة التالية ما يزال رطبًا بسبب المطر، وجاء الأسد وأخذ كليك ذات الشعر الأحمر. كان هذا كافيًا لليلتَين. ثم في الليالي المظلمة، التي تتخلَّل الليالي المقمرة، جاء ثلاث ليالٍ، ليلة بعد ليلة، رغم إشعالهم نيرانًا قوية. كان أسدًا عجوزًا أسنانه قصيرة، لكنه كان شديد السكون والهدوء؛ فقد كان يعلم عن النيران من قبل؛ إذ لم يكن هؤلاء أول البشر الذين يراهم طوال عمره الطويل. وفي الليلة الثالثة جاء في الفترة بين إشعال النار الخارجية والنار الداخلية، وقفَز على كومة حجر الصوَّان، وجذب إرم بن إرك، الذي بدا كأنه الزعيم. كانت هذه الليلة مروِّعة؛ لأنهم أشعلوا مشاعل هائلة من السَّرخس وركضوا وهم يَصرخون؛ فترك الأسد إرم. وفي ضوء النار رأَوْا إرم وهو يُعاني ليقف، وركض لمسافة قصيرة نحوهم، ثم قفَز الأسد قفزتين وأسقطه أرضًا مرةً أخرى. وكانت هذه آخر مرة يرَوْن فيها إرم.

هكذا جاء الخوف، واختفَت كل بهجة الربيع من حياتهم؛ فقد اختفى خمسة أفراد بالفعل من القبيلة، وبعد أربع ليالٍ زاد ثلاثة على هذا العدد. أصبح البحث عن الطعام يخلو من الحماس، فلم يكن يعلم أحدٌ مَن سيأتي عليه الدور في المرة المقبلة، وطوال اليوم كانت النساء يَجتهدن في العمل، حتى النساء المُفضَّلات، ويَجمعنَ القش والعِصيَّ من أجل النار التي تُشعل في الليل. وكان الصيادون يَصطادون بصعوبة؛ ففي أيام الربيع الدافئة حلَّ الجوع كما لو أنهم ما يزالون في فصل الشتاء. كان من المُمكن أن تنتقل القبيلة، إذا كان لها قائد، لكنهم لم يكن لهم قائد، ولم يكن أحد يعلم إلى أين يُمكنهم الذهاب دون أن يتبعهم الأسد. وعليه، فقد ازداد الأسد بدانة، وشكَر السماء على وجود جنس البشر. مات طفلان وشابٌّ بينما القمر لا يزال هلالًا، ثم جاء الدور على حارسة النار العجوز متغضِّنة البشرة، التي تخيَّلت نفسها أولًا في حُلمٍ مع أودينا وأوج-لومي، وتذكَّرت الطريقة التي قُتل بها أويا. لقد عاشت في خوفٍ طوال حياتها من أويا، والآن تعيش في خوفٍ من الأسد؛ فقد كان من المُستحيل أن يستطيع أوج-لومي — الذي رأتْه يولد أمام عينَيها — أن يَقتل أويا نهائيًّا. كان أويا هو من يبحث عن عدوِّه حتى الآن!

ثم جاءت العودة الغريبة لأوج-لومي، ورؤية حيوان عجيب يَركض بعيدًا عبر النهر، ثم تحوَّل فجأةً إلى حيوانَين، حصان ورجل. وبعد هذه الأعجوبة جاءت رؤية أوج-لومي على الضفة البعيدة من النهر … نعم، كان الأمر كله واضحًا لها. لقد كان أويا يُعاقبهم؛ لأنهم لم يُلاحقوا أوج-لومي وأودينا.

عاد الرجال مُتباطئين يُفكِّرون في مخاطر الليل بينما كانت الشمس لا تزال تُلقي بأشعتها الذهبية في السماء. استقبلَتْهم القبيلة بقصة أوج-لومي، وعبَرتِ السيدة العجوز معهم النهر، وأَرَتْهم أثره وهو مُتردِّد في الضفة الأبعد من النهر. لقد كان سيس «مُقتفي الأثر» يعرف آثار أقدام أوج-لومي. صاحت السيدة العجوز: «أويا يُريد أوج-لومي!» وهي تقف على يسار مُنحنى النهر، وكان جسدها البرونزي يتوهَّج في شمس المغيب. كانت صيحاتها غريبة، وصوتها يَقترب تارةً ويبتعد تارةً عن حدود الكلام، لكن المعنى الذي تتضمَّنه هذه الصيحات هو: «إن الأسد يريد أودينا؛ فهو يأتي ليلة بعد أخرى بحثًا عن أودينا وأوج-لومي. وعندما لا يستطيع العثور على أودينا وأوج-لومي يَستشيط غضبًا ويَقتل. اصطادوا أودينا وأوج-لومي، أودينا التي لاحَقَها، وأوج-لومي الذي أصدر عليه الحكم بالإعدام! اصطادُوا أودينا وأوج-لومي!»

التفتَت لتنظر إلى حقول البوص، كما كانت تلتفت أحيانًا لتنظر إلى أويا عندما كان على قَيد الحياة، وصاحت: «أليس كذلك يا زعيم؟» مالت أعواد البوص الطويلة من نسمة هواء كما لو كانت تجيب عليها.

ومن مكان بعيد في الشفق سُمع صوت ضربات مُتقطِّعة من مكان المعيشة. كان هذا صوت الرجال وهم يَشحذون رماحهم الرَّمادية اللون استعدادًا للصيد في الصباح. وفي المساء، في وقتٍ مبكِّر قبل ظهور القمر، جاء الأسد وأخذ ابنة سيس «مُقتفي الأثر».

في الصباح، قبل شروق الشمس، أخذ سيس «مُقتفي الأثر» والصبي فاو-هاو، الذي أصبح الآن يَقطع حجر الصوَّان، و«ذو العين الواحدة» وبو و«آكل الحلزون»، ورجلان من ذوي الشعر الأحمر، و«جلد القط» و«الثعبان» … كل الرجال المتبقِّين على قيد الحياة من أبناء أويا، رماحَهم الرَّمادية وحجارة الضرب وحجارة القذف، التي وضعوها داخل الحقائب المصنوعة من مخالب الحيوانات، وانطلقوا في أعقاب أوج-لومي عبر أجَمات نبات الزعرور الشائك، حيث كان وحيد القرن «ياا» وإخوته يَتناولون طعامهم، وصعدوا إلى أعلى الأراضي المنخفضة الجدباء في اتجاه غابات الزان.

في هذه الليلة كانت النار مُرتفعة وشديدة الاشتعال، واختفى القمر من السماء، وترك الأسد النساءَ والأطفال الجاثمين في سلام.

وفي اليوم التالي، بينما كانت الشمس في كبد السماء، عاد الصيادون؛ كلهم ما عدا «ذا العين الواحدة»، الذي سقَط صريعًا بجمجمة مهشَّمة في سفح الحافَة الصخرية. (عندما عاد أوج-لومي في ذلك المساء من مطارَدة الحصان، وجد الطيور الجارحة مُنهمِكةً في التهام جثَّته.) أحضر الصيادون معهم أودينا وبجسمها كدمات وجروح، لكنها على قيد الحياة. كانت هذه هي الأَوامر الغريبة التي أصدرَتها المرأة العجوز ذات التجاعيد، وهي أن يتمَّ إحضارها على قيد الحياة — «إنها ليست فريستنا؛ إنها لأويا الأسد.» كانت يداها مربوطتَين بسيور جلدية، كما لو كانت رجلًا، وجاءت مُتعَبة وواهنة، وكان شعرها يُغطي عينَيها وملبَّدًا بسبب الدماء. كانوا يسيرون حولها، وظلَّ «آكل الحلزون»، الذي أعطته اسمه، يضحك مرارًا وتكرارًا وهو يَضربها برمحه الرَّمادي. وبعدما ضربها برمحه، كان ينظر وراءه كما لو كان قد فعَل فعلًا مُفرط الجرأة. كان الآخرون أيضًا ينظرون وراءهم مرارًا وتكرارًا، وكلهم كانوا في عجلة من أمرهم ما عدا أودينا. عندما رأَتْهم المرأة العجوز قادِمين، صاحت بصوت مُرتفع من السعادة.

دفعوا أودينا إلى عبور النهر ويداها مربوطتان، رغم أن التيار كان عاليًا، وعندما انزلقَت صرخت المرأة العجوز، أولًا من الفرحة ثم خوفًا من أن تتعرَّض للغرق. وعندما

جذبوا أودينا إلى الشاطئ لم تكن تستطيع الوقوف لفترة طويلة، رغم أنهم ضربوها حتى تقرَّح جسمها؛ لذلك تركوها تجلس وقدماها تَلمسان الماء. كانت عيناها تنظران إلى الأمام، ووجهها جامدًا، بصرف النظر عما يقولون أو يفعلون. نزلت القبيلة كلها إلى مكان المعيشة، حتى «هاها» الصغيرة ذات الشعر الأجعد، التي بالكاد يُمكنها المشي، ووقفَت تُحدِّق في أودينا والمرأة العجوز، كما نُحدِّق الآن في وحش غريب مُصاب وصائده.

مزَّقت السيدة العجوز عِقد أويا الموجود حول عنق أودينا، ووضعته على عنقها؛ فقد كانت أول مَن يَرتديه. ثم بدأت تقطع شعر أودينا، وأخذت رمحًا من سيس وضربتها بكل قوتها. عندما نفَّست عن مكنونات صدرها على الفتاة، نظرت عن كثب في وجهها. كانت عينا أودينا مغلقتَين وكانت ملامحها جامدة، وكانت تَستلقي في سكونٍ تامٍّ لدرجة أن العجوز خشيَت أن تكون قد ماتت حتى ارتعشَت فتحتا أنفها. عندها لطمت العجوز وجه الفتاة وضَحِكت وأعطت الرمح لسيس مرةً أخرى، وابتعدت عنها قليلًا وبدأت تتحدَّث وتسخر منها بأسلوبها المعتاد.

كانت العجوز لديها كلمات أكثر من أيِّ فردٍ في القبيلة، وكان الاستماع إلى حديثها أمرًا بَشِعًا. أحيانًا كانت تَصرخ وتئن على نحوٍ غير مفهوم، وأحيانًا كانت صرخاتها ذات الصوت الأجش تتَّخذ شكل الشبح الذي يُطارد الأفكار. لكنها مع ذلك أخبرت أودينا معظم الأشياء التي تَنتظرها، عن الأسد وعن العذاب الذي سيُلحقه بها. «وأوج-لومي! ها-ها! أوج-لومي قد ذُبح؟»

فتحَت أودينا عينَيها فجأة وجلست مرةً أخرى، والتقت نظرتها بنظرة العجوز مباشرةً وبوضوح. قالت ببطء: «لا.» كأنها شخص يُحاول التذكر، «أنا لم أرَ حبيبي أوج-لومي مذبوحًا. أنا لم أرَ حبيبي أوج-لومي مذبوحًا.»

صاحت المرأة العجوز: «أخبِروها، أخبِروها عن الذي قتَله. أخبروها كيف قُتل أوج-لومي.»

نظرت هي وكلُّ النساء والأطفال الموجودين، كلٌّ منهم للآخر.

لم يُجِب أحد، ووقَفوا تبدو على وجوههم علامات الخجل.

قالت العجوز: «أخبِروها.» فنظر الرجال كلٌّ منهم للآخر.

أشرَق وجه أودينا فجأة.

فقالت أودينا: «أخبِروها، أخبِروها، أيها الرجال الأقوياء! أخبِروها عن مقتل أوج-لومي.»

نهضت العجوز وضرَبتْها بعنف على فمها.

قال سيس «مُقتفي الأثر» ببطء: «لم نستطع العثور على أوج-لومي؛ فمَن يُطارد اثنين، لا يقتل أيًّا منهما.»

عندها قفَز قلب أودينا فرَحًا، لكنها حافظت على جمود تعابير وجهها. كان هذا جيدًا؛ إذ نظَرتِ العجوز إليها بحدَّة، والرغبة في القتل تملأ عينَيها.

ثم وجهت العجوز حديثها إلى الرجال لأنَّهم خافوا من ملاحقة أوج-لومي؛ فقد أصبحت لا تخشى أحدًا الآن بعد مقتَل أويا. وبَّختهم تمامًا مثلما يُوبَّخ الأطفال، وهم عبسوا في وجهها، وبدءوا في إلقاء اللوم بعضهم على بعض، حتى رفَع سيس «مقتفي الأثر» صوته فجأة وطلب منها التزام الصمت.

عند مغيب الشمس أخذوا أودينا وذهبوا — رغم أن قلوبهم ارتعَدت من الخوف داخل صدورهم — عبر الطريق الذي ترَك فيه الأسد العجوز آثاره في البوص. ذهب الرجال كلهم معًا، وفي أحد الأماكن كانت توجد مجموعة من شجر جار الماء، وهناك قيَّدوا أودينا حيث يمكن للأسد العثور عليها عندما يخرج في الشفق. وعندما فعلوا هذا أسرعوا بالعودة حتى اقتربوا من مكان المعيشة، ثم توقفوا. توقف سيس أولًا، ونظر إلى الخلف مرةً أخرى إلى شجر جار الماء؛ فقد كانوا يستطيعون رؤية رأسها حتى من مكان المعيشة؛ كتلة صغيرة سوداء تحت جذع أكبر شجرة، وكانت لا تزال في مكانها.

وقف جميع النساء والأطفال يُراقبون على قمة التل، ووقَفت السيدة العجوز، وصرَخت على الأسد ليأخذ التي يبحث عنها، وأشارت عليه بأوجُه العذاب التي يُمكن أن يُلحقها بها.

كانت أودينا مُتعَبة للغاية الآن؛ إذ أعياها الضرب والإرهاق والحزن، وكان خوفها من الشيء الذي كان على وشك القدوم إليها هو الشيء الوحيد فقط الذي يجعل ظهرها صُلبًا. كان الشفق الأحمر بحمرة الدم يملأ الكون، ويظهر من بين سيقان أشجار الكَستَناء البعيدة، وكان الغرب كله مُشتعلًا، وتحوَّل نسيم المساء إلى هدوءٍ دافئ. كان الهواء مليئًا بأسراب الذباب الأسود، وكانت الأسماك في النهر القريب تتقافَز أحيانًا، ومن حين لآخر تُحلِّق خنفساء في الهواء. استطاعت أودينا أن ترى بطرَف عينها جزءًا من هضْبة مكان المعيشة، وخيالات أشخاص صغيرة تَقف وتُحدِّق فيها. كما استطاعت سماعَ قرع الحجر الناري — كان صوتُه خافتًا للغاية لكنه واضحٌ جدًّا. وكانت الأجَمة التي تُمثِّل عرين الأسد والمُحاطة بالبوص تبدو لها شديدة السكون والظُّلمة والقرب.

توقَّف الآن صوتُ الحجر الناري، وبحثَت عن الشمس فوجدَتها قد اختفت، وأصبح القمر فوقها ونورُه يزداد سطوعًا. نظرت نحو أجَمة العرين، تبحث عن أيِّ كائن بين أعواد البُوص، ثم بدأت فجأة تتملَّص وتتلوَّى، وتَنتحِب وتُنادي على أوج-لومي.

إلا أن أوج-لومي كان بعيدًا للغاية. عندما رأَوْا رأسها يتحرَّك مع سماع صوت معاناتها، صاحوا معًا من فوق الهضْبة؛ فكفَّت عما كانت تفعله وسكنت. بعد هذا جاءت الخفافيش وزحَف النجم الذي كان يُشبه أوج-لومي إلى خارج مخبئه الأزرق في الغرب. نادت عليه، لكن بهدوءٍ، لخَوفها من الأسد. وظلت الأجَمة طوال الوقت حتى حلول الفجر ساكنة.

هكذا زحف الظلام على أودينا، وأضاء القمر، وعادت ظلال الأشياء التي هربت إلى أعلى سفح التل، واختفَت مع حلول المساء إليها مرةً أخرى قصيرة وسوداء. كما تجمَّعت الأشكال الداكنة الموجودة داخل أجَمة البوص وأشجار جار الماء حيث يوجد الأسد، وبدأت تدبُّ في المكان حركة خفيفة، لكن لم يَخرج شيء من هذا المكان طوال الليل.

نظرت إلى مكان المعيشة ورأت النيران تشعُّ بحمرة الدخان، والرجال والنساء يتحرَّكون ذهابًا وإيابًا. وفي الجهة الأخرى، فوق النهر، كان يزحف ضبابٌ أبيض، ثم من بعيد جاء صوت عُواء ثعالب صغيرة وصياح أحد الضباع.

كانت ثمَّة فترات طويلة من الانتظار المؤلم؛ وبعد فترة طويلة قفَز حيوانٌ ما في الماء، وبدا أنه يعبر النهر خوضًا فيه إلى ما بَعد العرين، لكنها لم تستطع رؤية نوع هذا الحيوان، كما أنها استطاعت أن تَسمع من بِرَك الشرب البعيدة صوت الخوض في المياه، وضجيج الأفيال. كم كان الليل ساكنًا!

كانت الأرض وقتها تكوينًا عديم اللون من الانعكاسات البيضاء والظلال الكثيفة، تحت السماء الزرقاء. وكان القمر الفضي يُضيء القِمَم المُزينة لغابات الكَستَناء، وفوق القمم المظلمة المنحدرة نحو الشرق كانت النجوم بأعداد هائلة. أصبحت النيران المُنبعثة من الهضْبة باللون الأحمر الزاهي الآن، ووقفَت الأشباح السوداء تنتظر أمامها. كانوا ينتظرون صرخة ... بالتأكيد ستَحدث قريبًا.

بدت الليلة فجأة مليئة بالحرَكة. حبست نفَسها؛ فقد كانت ثمة كائنات تمرُّ عليها؛ واحد، اثنان، ثلاثة؛ ظلال تتسلَّل خلسة ... بنات آوى.

بعد ذلك جاءت فترة انتظار طويلة مرةً أخرى.

ثم سمعت صوت حركة من الأجَمة، تأكَّدَت هذه المرة على الفور أن الصوت كان حقيقيًّا في مقابل كل الأصوات التي تخيَّلتها في ذهنها، ثم حدثت حركة عنيفة. صدر صوتُ

تهشُّم، فقد سُحقت عيدان البوص بقوة، مرة، ثم مرتين، ثم ثلاث مرات، ثم سكَت كل شيء عدا صوت حفيفٍ مُنظَّم. سمعت صوتًا منخفضًا لحشرجة مرتعدة، ثم عاد السكون ليسود كل شيء مرةً أخرى. طال السكون؛ ألن ينتهيَ أبدًا؟ حبَست أنفاسها، وعضَّت على شفتيها حتى لا تصرخ، ثم انطلق شيء مُسرع عبر الشجيرات التحتية. وهنا صرخت صرخة لا إراديَّة، ولم تسمع صرخة تُجيب عليها من التلة.

استيقظَت الأجَمة فجأة على حركة أخرى عنيفة. رأت سيقان الحشائش تتحرَّك في ضوء القمر الذي يوشك على الاختفاء، ورأت شجر جار الماء يتأرجح. كافحت بشدةٍ كفاحَها الأخير، لكن لم يأتِ شيء نحوها. بدَت عشرات الوحوش تتدافع في هذا المكان الصغير لبضع دقائق، ثم مرةً أخرى عم السكون. اختفى القمر خلف أشجار الكَستَناء البعيدة، وانسدلت أستار الظلام.

جاء بعد ذلك صوتٌ غريب، صوت لاهث ينتحب، ازداد سرعةً وضعفًا. ثم ساد صمت آخر، ثم جاءت أصوات خافتة وأصوات بعض الحيوانات.

كان كل شيء هادئًا مرةً أخرى، ومن مكان بعيد جهة الشرق أصدر فيلٌ نهيمًا، ومن الغابة جاء صوتُ زئير ونُباح، وتَلاشَيا.

بعد فترة طويلة ظهر ضوء القمر مرةً أخرى، من بين جذوع الأشجار على الحافَة الصخرية، وأرسل شعاعَين هائلين من الضوء، وانبعث شريط من الظلام عبر البوص. ثم جاء صوت حفيف مُتواصِل، وصوت تناثر الماء، وتحرك البوص متباعدًا بعضه عن بعض أكثر فأكثر. وفي النهاية ظهرت فيه فتحة، وكأنه يَنفلِق من الجذور إلى الأطراف ... لقد حانت النهاية.

نظرت لترى الشيء الذي خرَج من البوص، وللحظة بدا من المؤكَّد أنه سيكون الرأس والفك الضخمَين اللذَين توقَّعتهما، ثم تضاءَلا وتغيَّرا. كان شيئًا داكنًا وقصيرًا ظلَّ صامتًا، لكنه لم يكن الأسد. ثم أصبح ساكنًا، ساد السكون كل شيء. حدَّقت بعينيها، كان أشبه بضفدع ضخم، طرَفان وجسم مائل، وكان رأسه يتحرَّك باحثًا في الظلال ...

صدر صوتُ حفيف، وتحرَّك على نحوٍ أخرق، وكأنه يقفز. وعندما تحرَّك أطلق صوت حشرجة مُنخفضًا.

اندفع الدم في عروقها، وانتابها الفرح فجأة، وهمست: «أوج-لومي.»

توقَّف الشيء، ورد قائلًا: «أودينا.» بهدوء وبصوت فيه ألم وهو يُحدق في أشجار جار الماء.

تحرَّك مرةً أخرى، وخرج من الظل خلف البوص إلى ضوء القمر. كان جسمه كله مغطًّى ببقع داكنة اللون. رأت أنه كان يجرُّ رجليه، وأنه كان مُمسكًا بفأسه، الفأس الأولى، في إحدى يديه. بعد لحظة عانى وسقَط على أطرافه الأربعة، وتوجه إليها مترنحًا. قال بمزيجٍ غريب من الابتهاج والألم البالغ: «الأسد. فاو! أنا قتلتُ الأسد، بيدي، تمامًا كما قتلتُ الدبَّ الكبير.» تحرَّك حتى يُؤكِّد على كلامه، وتوقَّف فجأة، وأصدر صيحة خافتة. لم يتحرك لفترة من الوقت.

همست أودينا: «حرِّرني.»

لم يَنبس ببِنْت شَفَة، لكنه رفع نفسه من وضع الزحف هذا باستخدام جذع شجرة جار الماء، وبدأ يُقطِّع في السيور الجلدية التي تُقيِّدها بالطرَف الحاد لفأسه. سمعته يلتقط أنفاسه بصعوبة مع كل ضربة للفأس. قطع السيور الجلدية الملفوفة حول صدرها وذراعيها، ثم سقطت يده. ارتطَم صدره بكتفها وانزلق بجوارها، واستلقى ساكنًا.

كان تحرُّرها من بقية قيودها أمرًا سهلًا؛ فحرَّرت نفسها بسرعة. ابتعدت خطوة عن الشجرة، وكان رأسها يدور، وكانت آخر حركة واعية لها نحوه؛ فقد ترنَّحَت وسقطت فجأة سريعًا بجواره. جاءت يدها على فخذه، التي كانت طريَّةً ورطبةً؛ فتحرك تحت ما مارسته عليه من ضغط. صرخ عندما لمسته، وتلوَّى واستلقى ساكنًا مرةً أخرى، ويدها فوق جسمه.

في هذا الوقت، جاء شيء داكن يُشبه الكلب بهدوء شديد عبر عيدان البوص. تسمَّر هذا الشيء في مكانه، ووقف يشمُّ، ثم تردَّد، وأخيرًا استدار وانسلَّ عائدًا أدراجه إلى داخل الظلال.

طال وقتُ بقائهما هناك دون حراك، مع سقوط ضوء القمر الذي أوشَك على الاختفاء على أطرافهما. وببطء شديد، تمامًا مثل البطء الذي يَختفي به القمر، زحف ظل البوص قبالة التلة عليهما. والآن اختفت أرجلهما، ولم يكن أوج-لومي إلا مجرد صدر فضِّي. زحف الظل على رقبته، وعلى وجهه، حتى ابتلعَتْهما ظلمة الليل.

أصبح الظل مليئًا بتحركات غريزية؛ فكان ثمة وقع أقدام، وصوت زمجرة خافتة؛ صوت ضربة.

لم يحظَ النساء والأطفال هذه الليلة بنومٍ هادئ في مكان المعيشة حتى سمعوا صوت صرخة أودينا. إلا أن الرجال كانوا مُتعَبين وجلسوا يَغلبهم النُّعاس. عندما صرخت أودينا شعروا بالاطمئنان على سلامتهم، وأسرعوا بالذهاب إلى أقرب الأماكن إلى النيران. ضحكت

المرأة العجوز عندما سمعت الصرخة، وضحكت مرةً أخرى لأن «سي»، أخت أودينا الصغرى، انتحَبت. بزَغَ الفجر مباشرةً بعد هذا، واستيقظوا جميعًا، ونظروا نحو أشجار جار الماء. استطاعوا رؤية أن أودينا قد أُخذت، ولم يسعْهم إلا الشعور بالسعادة لمعرفتهم بأن أويا قد استُرضي. لكن في أذهان الرجال هبطت فكرة أوج-لومي عليهم مثل الشبح؛ فقد كان بإمكانهم فهم مفهوم الانتقام؛ إذ كان مفهومًا قديمًا في العالم، لكنَّهم لم يُفكِّروا في الإنقاذ. خرَج فجأة ضبعٌ من الأجَمة، وجاء يعدو بسرعة عبر مساحة البوص. كانت أنفُه ومخالبه سوداوي اللون. عند رؤيته صاح كل الرجال وأمسَكوا حجارة القذف وركضوا نحوه؛ إذ لم يكن ثمَّة حيوان أجبَن من الضبع في أثناء النهار. كان كل البشر يَكرهون الضبع لأنه يفترس الأطفال، وكان يأتي ويعضُّ المرء وهو نائم على حافة مكان المعيشة. أصاب «جلدَ القط»، الذي رَمى الحيوان بعنف على خاصرته رمية مباشرةً ومُستقيمة، وعندها صاحت القبيلة بأكملها فرَحًا.

عند سماع الضجيج الذي أحدثوه جاءت أجنحة تُرفرِف من عرين الأسد، وحلَّقت ثلاثة نسور بيضاء الرأس ببطء، وفي دوائر وجاءت لتَستريح بين فروع إحدى أشجار جار الماء، المُطلَّة على العرين. قالت العجوز، وهي تُشير إلى النسور: «إن زعيمنا بالخارج، والآن النسور تأخُذ نصيبها من أودينا.» ظلت النسور هناك لفترة من الوقت، ثم هبَط واحد في البداية ثم تلاه آخر إلى داخل الأجَمة.

فوق الغابات الشرقية، انهمر ضوء الشمس المشرقة، يُضفي على العالم بأكمله الحياة والألوان، ويشعُّ فيه النشاط كما يفعل النفخ في الأبواق. عندما رأى الأطفال الشمس صاحوا معًا، وصفَّقوا وبدءوا في التسابُق نحو الماء. لم يتخلَّف عنهم إلا «سي» الصغيرة، التي نظرَت بتساؤل نحو أشجار جار الماء، حيث كانت ترى رأس أودينا الليلة الماضية.

إلا أن أويا، الأسد العجوز، لم يَكن بالخارج بل كان في عرينه، وكان مُستلقيًا ساكنًا للغاية، مائلًا قليلًا على أحد جانبَيه. لم يكن داخل العرين، بل كان بعيدًا قليلًا عنه في مكان فيه عشبٌ مدهوس. كان تحت إحدى عينيه جرح صغير، خبطة صغيرة بسيطة من الفأس الأولى. إلا أن الأرض تحت صدره كانت بُنِّية اللون مائلة إلى الحمرة مع بقعة زاهية اللون، وفي صدره توجد فتحة صغيرة صنَعها أوج-لومي برُمحه الذي يَطعن به. وقد تركَت النسور علاماتها على جانبِه وعند عنُقه. لقد قتَله أوج-لومي، وكان مُستلقيًا بضربة تحت مخلبِه وطعنة عرضية في صدره. لقد أدخل الرمح في جسمه بكل ما أُوتي من قوة وطعَنه في قلبه الضخم. وهكذا وصل حكم الأسد، التجسيد الثاني لـ «أويا الزعيم»، إلى نهايته.

من جهة الهضْبة الصغيرة ازداد صوت الاستعدادات، وتقطيع الرماح وحجارة القذف. لم يتفوَّه أحد باسم أوج-لومي خوفًا من أن يُعيده هذا إليهم. اعتزم الرجال البقاء معًا، بالقُرب بعضهم من بعض، في أثناء الصيد لمدة يومٍ أو ما شابه. وكان هدفُهم من الصيد هو صيد أوج-لومي، إلا إذا جاء ليَصيدهم أولًا.

إلا أن أوج-لومي كان ساكنًا وصامتًا، خارج عرين الأسد، وأودينا جلست القرفصاء بجواره، وهي تُمسك في يدها الرمح الرَّمادي، المضرَّج كله بالدماء.

(٥) صراع في أجَمة الأسد

استلقى أوج-لومي ساكنًا، وظهره قبالة أشجار جار الماء، وفخذه عبارة عن كتلة حمراء من المروِّع النظرُ إليها. لم يكن بإمكان أي رجل مُتحضِّر العيش مع مثل هذا الجرح البالغ، لكن أودينا أحضرت له نبات الزعرور الشائك لتُغلق به جروحه، وجلست القرفصاء بجواره نهارًا وليلًا، تَضرب الذباب في أثناء النهار لتُبعده عنه بمِروحة صنعَتها من البوص، وفي الليل كانت تُخيف الضباع التي كانت تقترب منهما باستخدام الفأس الأولى التي كانت تُمسكها في يدها؛ وبعد فترة قصيرة بدأت جروحه تشفى. كان فصل الصيف في أشُدِّه، ولم يكن ثمة مطر. ولم يكن لديهم إلا القليل من الطعام، وفي خلال أول يومَين كانت جروحه ما تزال مفتوحة. وفي المكان المُنخفِض الذي كانا مُختبئَين فيه، لم تكن توجد جذورٌ أو حيوانات صغيرة، كما أن المَجرى المائي، حيث حلزون المياه والأسماك، كان في المساحة المفتوحة على بُعد مئات الياردات. لم تستطع الخروج في النهار خوفًا من القبيلة، إخوتها وأخواتها، ولا في الليل خوفًا من الوحوش، عليه وعلى نفسها؛ لذلك اشتركا في الأسد النافق مع النسور. إلا أنه كان ثمَّة مجرًى مائي صغير قريب، وأحضرت أودينا إليه كَميَّة كبيرة من الماء في يديها.

كان أوج-لومي مختفيًا جيدًا، في المكان الذي يَستلقي فيه، عن القبيلة بسبب وجود أجَمة من أشجار جار الماء، ومُحاط من جميع الجهات بنبات البردي وعيدان البوص الطويلة. وكان الأسد الذي قتَله يوجد بالقرب من عرينه القديم في مكان من البوص المدهوس على بُعد خمسين ياردة، في مكان يُمكن رؤيته عبر جذوع البوص، وتعارَكت النسور مع بعضها على القِطَع الأكثر تميُّزًا، وأبعدت بنات آوى عنه. وعلى الفور حلَّقت سحابة من الذباب — الذي بدا مثل النحل — فوقه، واستطاع أوج-لومي سماع صوت

أزيزه. وعندما كان جلد أوج-لومي يَلتئم بالفعل — ولم يكن هذا قبل أيام كثيرة من بدء هذا — لم يكن يبقى من الأسد إلا بعضُ العظام المبعثَرة البيضاء اللامعة.

جلس أوج-لومي لمعظم الوقت ساكنًا طوال اليوم، يَنظر أمامه إلى العدم، وأحيانًا كان يُتمتِم بكلام عن الخيل والدببة والأسود، وأحيانًا كان يضرب الأرض بالفأس الأولى ويردد أسماء أفراد القبيلة لساعات طويلة؛ فبدا أنه لم يكن يَخاف من إحضار القبيلة. إلا أنه في أغلب الوقت كان يَنام، ويحلم أحلامًا قليلة بسبب فقدانه للدماء وقلَّة ما يتناوله من طعام. ظلَّ الاثنان مُستيقظَين طوال ليل الصيف القصير، فطوال فترة الظلام كانت أشياء تتحرَّك حَولهما، لم يكونا يُشاهِدانِها قطُّ في أثناء النهار. لم تأتِ الضباع لعدد من الليالي، ثم في إحدى الليالي غير المُقمِرة جاء حوالي دستة منها، وحاربَت على ما بقيَ من الأسد. كانت هذه الليلة صاخبة بالزمجرة، واستطاع أوج-لومي وأودينا سماع صوت تكسُّر العظام تحت أسنانها. إلا أنهما كانا يَعلمان أن الضباع لا تجرؤ على مهاجمة أيِّ كائن على قَيد الحياة ومستيقظ؛ ولذا لم يخافا كثيرًا.

في أثناء النهار كانت أودينا تذهب على طوال الممرِّ الضيق، الذي صنَعه الأسد العجوز في البُوص حتى تصل إلى ما وراء مُنحنى النهر، ثم كانت تزحَف إلى داخل الأجَمة وتُراقب القبيلة. كانت تستلقي بالقرب من أشجار جار الماء، حيث قيَّدوها حتى يُقدِّموها إلى الأسد؛ ومن ثم كان باستطاعتها رُؤيتهم على الهضْبة بجوار النار، صغارًا وواضِحين، تمامًا كما رأتهم في تلك الليلة. لكنها لم تُخبر أوج-لومي إلا القليل مما رأته؛ لأنها كانت تخشى أن تَذكُرهم بأسمائهم؛ ففي تلك الأيام كانوا يعتقدون أن ذِكر الأسماء يستدعي الفرد.

رأت الرجال يُجهِّزون رماح القتل وحجارة القذف في الصباح بعدما قتل أوج-لومي الأسد، ويَخرجون لصيده، تاركين النساء والأطفال على الهضْبة. لم يكونوا يعلمون مدى قُربه إذ ذهبوا في اقتفاء أثره في طابور واحد نحو التلال، وكان سيس «مُقتفي الأثر» يقودُهم. كما شاهَدَت النساء والأطفال، بعدما يَذهب الرجال، يجمعون سعف وأغصان السَّرخس من أجل إشعال النار في المساء، وكان الأولاد والبنات يَركضون ويلعبون معًا. إلا أن رُؤية السيدة العجوز للغاية كانت تُخيفها. وبعد فترة طويلة بالقُرب من الظهيرة، عندما يكون معظم الآخَرين في الأسفل في مجرى النهر بالقرب من مُنحناه، كانت العجوز تأتي وتقف على الجانب القريب من الهضْبة، ببشرتها البُنِّية المُتغضِّنة، وتُشير، حتى إن أودينا كانت بالكاد تُصدِّق أنها غير مرئية. كانت أودينا تجلس كالأرنب البريِّ، وعيناها اللامعتان ثابتَتان على العجوز القبيحة المُنحنية الواقفة بعيدًا، وأصبحت تُدرك الآن على نحوٍ طفيف أن هذه العجوز كانت تَعبد الأسد؛ الأسد الذي قتَله أوج-لومي.

في اليوم التالي، عاد الصيادون مُتعَبين، يَحملون أُيَّلًا صغيرًا، وراقبَتْهم أودينا وهم يُقيمون وليمةً عليه وهي تَحسدهم. ثم حدث شيء غريب؛ فقد رأت — وسمعت من بعيد — السيدة العجوز تَصرُخ وتُومئ وتشير نحوها. انتابها الخوف، وزحفَت مثل الثعبان بعيدًا عن نظرهم مرةً أخرى. إلا أن الفضول سيطر عليها الآن وعادت مرةً أخرى إلى مكان التجسُّس الذي كانت فيه، وعندما نظَرت توقَّف قلبُها؛ حيث رأت كل الرجال يتَّجهون نحوها من الهضْبة، وهم يَحملون أسلحتهم في أيديهم.

لم تَجرُؤ على التحرُّك حتى لا تُرى حركتها، لكنها ألصقَت نفسها بالأرض. كانت الشمس مُنخفِضة، وكانت الأشعة الذهبية في وجوه الرجال. رأتهم يَحملون قطعة من اللحم الأحمر الغني غُرزت في وتِد رَمادي. توقَّفوا الآن، وصاحت العجوز: «استمرُّوا!» دمدم «جلد القط»، واستمرُّوا كلهم في التقدُّم، يَبحثون في الأجَمة بأعيُن يُعميها ضوء الشمس. قال سيس: «تفضل.» وأخذوا الوتِد الرَّمادي المَغروز فيه قطعة اللحم وغرَزوه في الأرض. صاح سيس: «أويا! انظر إلى نصيبك؛ فنحن قتَلنا أوج-لومي، حقيقةً لقد قتَلنا أوج-لومي. لقد قتلنا أوج-لومي اليوم، وسنُحضر لك جثَّته غدًا.» وردَّد الآخرون هذه الكلمات.

نظر بعضهم إلى بعض ثم نظروا وراءهم، واستداروا جزئيًّا وبدءوا في العودة. ساروا في البداية وهم مُلتفِتون نصف التفاتة إلى الأجَمة، ثم عندما أصبحوا مواجِهين للتلة ساروا على نحوٍ أسرع، يَنظرون خلفهم، ثم يُسرعون الخطى، وسرعان ما كانوا يركضون، وتحول الأمر في النهاية إلى سباق، حتى اقتربوا من الهضْبة. ثم كان سيس، الذي كان آخر واحد فيهم، أول مَن خفَّف من سرعته.

انقضى غروب الشمس وجاء الغسق، وتوهَّجت النيران باللون الأحمر في خلفية من أشجار الكَستَناء البعيدة زرقاء اللون، وكانت الأصوات فوق التلة فَرِحة. استلقَت أودينا بالكاد تتحرَّك، وتَنظر من التلة إلى قطعة اللحم ثم إلى التلة مرةً أخرى. لقد كانت جائعة لكنها كانت خائفة، وفي النهاية زحَفت عائدة إلى أوج-لومي.

فنظر نحوها عند سماعه صوت اقترابها. كان وجهُه في الظل، وقال: «هل أحضرتِ لي بعض الطعام؟»

قالت إنها لم تَستطِع العثور على شيء، لكنها ستَبحث أكثر، وعادت لتسير على طول السبيل الذي اتخذه الأسد حتى استطاعت رؤية التلة مرةً أخرى، لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على أخذ قطعة اللحم؛ فقد كانت تَشعُر بغريزتها الحيوانية أنه فخ؛ فشعرت ببؤس شديد.

عادت زاحفةً مرةً أخرى نحو أوج-لومي، وسمعته يتحرَّك ويئن. التفتَت إلى التلة مرةً أخرى، ثم رأت شيئًا في الظلام بالقُرب من الوتِد، وعندما أمعنت النظر ميَّزت أنه ابن آوى. أصبحت على الفور شُجاعة وغاضبة، قفَزت عاليًا وصاحت بصوت مرتفع، وركضت نحو القُربان. تعثَّرت وسقطت على الأرض، وسمعت ابن آوى يُصدر زمجرة.

عندما نهضت لم يكن إلا الوتِد الرَّمادي مُلقًى على الأرض، وكانت قطعة اللحم قد اختفَت، وعليه فقد عادت حتى تصومَ طوال الليل مع أوج-لومي. غضبَ أوج-لومي كثيرًا منها؛ لأنها لم تَعثُر على طعام له، لكنها لم تُخبره أيَّ شيء عن الأشياء التي رأتها.

مرَّ يومان، وشارَفا على الموت جوعًا، عندما ذبحَت القبيلة حصانًا. ثم حدثت المراسم نفسها، وتُركت فخذ الحصان على الوتِد الرَّمادي، لكن هذه المرَّة لم تتردَّد أودينا.

استطاعت بالتمثيل والكلمات جعل أوج-لومي يَفهم، لكنه كان قد تناول معظم الطعام قبل أن يَفهم، ثم أصبح سعيدًا بما يَتناوله من طعام. وقال: «أنا أويا، أنا الأسد، أنا دبُّ الكهوف العظيم، أنا الذي لم أكُن سِوى أوج-لومي. أنا «فاو الماكر». يُستحسَن أن يُقدِّموا لي الطعام؛ لأني الآن سأقتلهم جميعًا.»

عندئذ زال الهمُّ عن قلب أودينا، وضحكَت معه، وبعدها أكلت بسعادة ما تركه من لحم الحصان.

بعد ذلك راوَدَه حُلم. وفي اليوم التالي جعَل أودينا تُحضِر له أسنان الأسد ومخالبه — قدْرَ ما تَجده منها — وتقطع له عصًا من أشجار جار الماء، وغرس الأسنان والمخالب بدهاء بالغ في الخشب بحيث تكون أطرافُها الحادة متجهة إلى الخارج. استغرق هذا وقتًا طويلًا منه، وأدَّى إلى ثَلم اثنتين من الأسنان وهو يدقُّهما لإدخالهما، وكان غاضبًا للغاية، ورمى هذا الشيء بعيدًا، لكنه بعد ذلك سحبَ نفْسه إلى المكان الذي ألقاه فيه وأنهاه؛ وهكذا صنَع نوعًا جديدًا من الهراوات له أسنان. وفي هذا اليوم توفَّر مزيدٌ من اللحم لكلٍّ منهما، الذي كان قُربانًا للأسد من القبيلة.

في أحد الأيام — بعد عدد يَزيد عن أصابع اليد الواحدة، أكثر من قُدرة أيِّ شخص على العد — بعدما صنع أوج-لومي الهراوة، كانت أودينا مُستلقية في الأجَمة (بينما كان هو نائمًا) تُراقب مكان مَعيشة القبيلة. لم يكن يوجد لحم لمدة ثلاثة أيام، وجاءت العجوز لتُمارسَ طقوس العبادة كعادتها. والآن بينما كانت تُمارس طقوس العبادة، جاءت أختُ أودينا الصغرى «سي» وطفلة أخرى، بنت أول فتاة أحبَّها «سيس»، إلى الهضْبة، ووقَفا ينظران إلى شكلها النحيل وبدآ يسخران منها. وجدت أودينا هذا أمرًا مُسليًا، لكن فجأة

التفتَت العجوز إليهما بسرعة ورأتهما. لبُرهة ظلت واقفة، ووقَفا هما أيضًا دون حركة، ثم صرخت صرخة غاضبة، وأسرعت نحوهما، واختفى الثلاثة على قمة الهضْبة.

الآن ظهَر الأطفال مرةً أخرى بين السراخس على حافَة التل. ركَضت الصغيرة «سي» أولًا؛ إذ كانت فتاةً نشيطة، وركضت الطفلة الأخرى تَصرُخ والعجوز تَقترب منها. وفوق الهضْبة جاء «سيس» يَحمل عظمةً في يده، وجاء «بو» و«جلد القط» خلفه في حذر، يَحمل كلٌّ منهما قطعة من الطعام، وضَحِكا بصوت مُرتفِع، وصاحا بسبب رؤية العجوز غاضبة على هذا النحو. أمسكت العجوز الطفلة الصارخة، وبدأت تَصفعها والطفلة تَصرخ، وكان هذا بالنسبة لهما لهوًا رائعًا بعد العشاء. ركَضت الصغيرة «سي» لمسافة قصيرة، وتوقَّفت في النهاية بين شعورها بالخوف والفضول.

فجأة جاءت أمُّ الطفلة، وهي تلهَث وشعرُها يطير، وتحمل في يدها حجرًا، والتفتَت إليها العجوز مثل قطَّة شرسة. لقد كانت مُساويةً لأيِّ سيدة؛ فقد كانت الرئيسة القديمة لحُراس النار، بالرغم من عمرها المُتقدِّم، لكن قبل أن تفعل أيَّ شيء صاح «سيس» فيها، وعَلا الصراخ. ظهرت رءوس أخرى شعثاء؛ فقد بدا أن القبيلة بأكملها تَحتفِل، إلا أن العجوز لم تجرؤ على توجيه انتقامها نحو الطفلة التي وقَف «سيس» في صفِّها، ومع ذلك كان عراكًا صاخبًا.

أصدر الجميع ضجيجًا ووجَّه سبابًا، حتى الصغيرة «سي». وفجأة تركت العجوز الطفلة التي أمسكَت بها، وركضت بسرعة نحو «سي» التي لم يكن لها أصدقاء، و«سي»، التي أدركَت ما يَحيق بها من خطرٍ عندما كاد يُصيبها، أسرَعت بالعَدوِ، غير مُكترِثة إلى أين تذهب، مباشرةً إلى عرين الأسد. انحرفت جانبًا إلى داخل البوص الآن، غير مُدرِكة إلى أين كانت ذاهبة.

إلا أن المرأة العجوز كانت بارعةً، لديها من النشاط تمامًا مثلما لديها من حقد، وأمسكت «سي» من شعرها المُتطاير على بُعد ثلاثين ياردة من أودينا. كانت القبيلة بأكملها الآن تركض إلى أسفل الهضْبة وتَصيح، مُستعدَّة لرؤية المرح.

ثم تحرَّك شيء ما داخل أودينا، التي لم تكن تُفكِّر إلا في الصغيرة «سي»، ولم تكن تُعِر بالًا لخوفها؛ فقفَزت من مكمَنِها، وركضت بسرعة إلى الأمام. لم ترَها العجوز؛ إذ كانت مُنشغلةً بضرب وجه الصغيرة «سي» بيدها، ضربتها بكل قوتها، وفجأة ضرَب وجنتَها شيء صلبٌ وثقيل. تدحرجت العجوز، ورأت أودينا بعينَين متأجِّجتَين ووجنتَين مُشتعلتَين، بينها وبين الصغيرة «سي». صرخت من الذهول والرُّعب، وانطلقَت الصغيرة «سي»، التي

لم تَفهم شيئًا، نحو القبيلة. كان أفراد القبيلة قد اقتربوا الآن إلى حدٍّ كبير؛ إذ أنسَتْهم رؤية أودينا الخوف المُتضائل من الأسد.

في لحظة ابتعدت أودينا عن العجوز المُنكمِشة رُعبًا، ولحقت بـ «سي». صاحت «سي! سي!» وحمَلت الطفلةَ بين ذراعيها عندما توقَّفت، ووضعت وجه الطفلة الذي علَّمت فيه أظافر العجوز على وجهها، واستدارت لتَعدو نحو العرين؛ عرين الأسد العجوز. وقفَت المرأة العجوز بين البوص وهو يصل إلى خصرها، ولفظت أشياءَ بغيضة، وصاحَت بغضبٍ بكلمات غير مفهومة، لكنها لم تَجرُؤ على اعتراض طريقها، وعند مُنحنى الطريق نظرت أودينا إلى الخلف، ورأت جميع رجال القبيلة يَتصايَحون، ورأت «سيس» يأتي مُهرولًا نحو مسار الأسد.

ركضت مباشرةً على طول الطريق الضيق عبر البوص إلى المكان الظليل حيث كان أوج-لومي يَجلس بفخذه التي على وَشك الالتئام، وقد استيقَظ لتوِّه بسبب الصياح، وكان يفرك عينَيه. جاءت إليه أودينا والصغيرة «سي» بين ذراعَيها. كان قلبها يخفق بشدة، وصاحت: «أوج-لومي، القبيلة قادمة!»

جلس أوج-لومي يُحدِّق فيها هي و«سي» في ذهول أحمق.

أشارَت وهي تحمل «سي» بإحدى ذراعَيها، وحاولت أن تشرح له باستخدام مخزونها الضعيف من الكلمات. كان باستطاعتها سماع الرجال يُنادون؛ من الواضح أنهم توقَّفوا في الخارج. وضعت «سي» أرضًا، وأمسكت بالهراوة الجديدة المصنوعة باستخدام أسنان الأسد، ووضعَتها في يد أوج-لومي، وركَضت ثلاث ياردات، وأمسكت بالفأس الأولى.

قال أوج-لومي: «آاه!» وهو يُلوِّح بالهراوة الجديدة، وفجأةً أدرك الوضع؛ فتدحرج وبدأ يُناضِل حتى يقف على قدميه.

استطاع الوقوف، لكن على نحوٍ غير مُريح. أسند نفسه بإحدى يدَيه على الشجرة، ولم يَسعْه إلا لمس الأرض بحذرٍ بإصبع قدمه المصابة، وفي اليد الأخرى أمسك الهراوة الجديدة. نظر إلى فخذه المُلتئِمة؛ وفجأة بدأ البوص يتحرَّك مُصدرًا حفيفًا، وتوقَّف ثم تحرَّك مرةً أخرى، ثم ظهر «سيس» قادمًا بحذرٍ على طول الطريق عبر البوص، مُنحنيًا لأسفل ومُمسكًا في يديه عصا الطعن المصقولة في النار. تسمَّر في مكانه، والتقَت عيناه بعينَي أوج-لومي.

نسي أوج-لومي أن لدَيه رِجلًا مُصابة، ووقَف بثبات على قدمَيه؛ فسال منه شيء. نظر إلى الأسفل فرأى كتلة صغيرة من الدماء تسرَّبت إلى خارج طرَف جرحه الملتئم. مسح يده فيها حتى يُحكم قبضته على الهراوة، وثبَّت عينَيه مرةً أخرى على «سيس». غمَرته الآن الرُّوح القتالية بسُرعة وفجأة.

صاح: «فاو!» ووثَب إلى الأمام، ورفع «سيس»، الذي كان ما يزال مُنحنيًا وحَذِرًا، عصاهُ المخصَّصة للطعن سريعًا في اندفاع مروِّع. شقت العصا ذراع أوج-لومي التي يحتمي بها، ونزلت عليه الهراوة على نحوٍ لم يفهمه «سيس» قط. سقط على الأرض، مثلما يَسقُط الثور عند ضربه بفأس، عند قدمَيْ أوج-لومي.

بدا هذا أغرب شيء لـ «بو»؛ فقد كان لدَيه شعورٌ بالراحة لوجود أعواد البوص الطويلة على كلا الجانبَين، ووجود حاجز منيع، مُتمثِّل في «سيس»، بينه وبين أيِّ خطر. كان «آكِل الحلزون» خلفه في مكانٍ قريب، ولم يكن يوجد خطر هناك. كان مُستعدًّا للتراجُع للخلف وإرسال «سيس» للموت أو لتحقيق النصر. كان هذا هو مكانه بوصفِه الرجلَ الثاني. رأى النصل غير الحاد للرمح الذي يَحمله «سيس» يَطير بعيدًا عنه، وفجأةً جاءت الضَّربة الثقيلة وسقط الظَّهر العريض صريعًا إلى الأمام، ونظر إلى وجه أوج-لومي من وراء زعيمه الذي طُرح أرضًا. شعر «بو» كأن قلبَه سقط إلى أسفل بئر. كان يَحمِل حجَر قذف في إحدى يدَيه، وعصًا رَمادية مُخصَّصة للطعن في اليد الأخرى. لم يَعِش حتى نهاية تردُّده اللحظي هذا لتحديد أيهما يستخدم.

كان «آكل الحلزون» أكثر استعدادًا، وإضافةً إلى هذا لم يَسقط «بو» مثل «سيس» إلى الأمام، بل سقط عند ركبتَيه وورِكَيه؛ فسقط متهالكًا، والهراوة المسنَّنة تشقُّ رأسه. أخرج «آكل الحلزون» رمحه إلى الأمام بسرعة وعلى نحوٍ مستقيم، وضرب به عضلة كَتِف أوج-لومي، ثم دفعه بشدة بحجر الضرب الذي يَحمله في يده الأخرى، وصاح بصوت مُرتفِع وهو يفعل هذا. تحرَّكت الهراوة الجديدة عبر البوص دون هدف. رأت أودينا أوج-لومي يَرجع مترنِّحًا من المَمر الضيِّق إلى المساحة المفتوحة، مُتعثِّرًا في «سيس» والرمح مغروس في كتفه ويتدلى على ذراعه، ثم حصل «آكل الحلزون»، الذي أطلقَت هي هذا الاسم عليه، على آخر إصابة له منها، عندما خرَج وجهه المُتهلِّل من البوص عقب خروج رمحه؛ فقد سدَّدت إلى صدغه ضربة قوية وسريعة بالفأس الأولى؛ فسقَط صريعًا فوق «سيس» عند قدمَي أوج-لومي.

لكن قبل أن يستطيع أوج-لومي الوقوف على قدمَيه، كان الرجلان ذوا الشعر الأحمر يُسرِعان بالخروج مُتعثِّرَين من البوص، وهما مُستعدان برماحهما وحجارة الضرب، وخرج «الثعبان» مُندفعًا بقوة مِن ورائهما. ضَربت أحدَهما على عنقه، لكن الضربة لم تكن كافية لإسقاطه أرضًا؛ فترنَّح جانبًا، وأفسد ضربة أخيه على رأس أوج-لومي. وفي لحظةٍ هوى أوج-لومي بهراوته على خصر مُهاجمه، وأسقطه جانبًا مُنبطِحًا. ثم أمسك

بهراوته مرةً أخرى، مُستعيدًا إياها. وجَّه الرجل الذي ضربته أودينا رمحه تجاهها، وهو يتعثَّر إثر ضربتها؛ فتقهقَرت لا إراديًّا لتتفاداه. تردَّد بينها وبين أوج-لومي، مُلتفتًا التفاتًا غير مُكتمِل، وأصدر صرخة خافتة عندما رأى أوج-لومي قريبًا للغاية، وفي لحظةٍ ضربه أوج-لومي في عنقه، وقضت الهراوة على ضحيتها الثالثة. وفي أثناء سقوطه أرضًا، صاح أوج-لومي صيحة مُتهلِّلة، دون كلمات.

كان الرجل الآخر ذو الشعر الأحمر يَبعد عنها ست أقدام وكان ظهره موجَّهًا إليها، وكان رأسه مخضَّبًا بلونٍ أكثر حُمرة من شعره. كان يُناضل ليقف على قدمَيه؛ فاندفعت دون تفكير لتمنعه من النهوض. قذفته بالفأس، ولم تُصبه؛ فرأت جانب وجهه، كان يَنحرف فجأة من وراء الصغيرة «سي» ويركض عبر البوص. رأت «الثعبان» رُؤية عابرة وهو يقف في عنق المر متحوِّلًا جزئيًّا بعيدًا عنها، ثم رأت ظهره. رأت الهراوة تدور في الهواء، ورأس أوج-لومي الأشعث، والدم يسيل عليه وعلى كتفه، تختفي تحت البوص على الفور، ثم سمعت «الثعبان» يَصرخ مثل امرأة.

ركضت مُتجاوزةً «سي» إلى حيث يظهر مِقبض الفأس من كتلة من السَّرخس، والتفتَت لترى نفسها لاهثة وحدها بين ثلاث جُثث لا تتحرَّك، وكانت الأجواء ملأى بالصيحات والصرخات. ظلت لفترة تَشعُر بالإعياء والدوار، ثم خطر في ذهنها أن أوج-لومي تعرَّض للقتل في ممر البوص؛ فقفَزت صارخة صرخة تعجِز عن التعبير عما يَعتمل داخلها من مشاعر فوق جثة «بو»، وركضت وراءه. كانت قدما «الثعبان» ممدَّدتين عبر المر، ورأسه بين البوص. سارت في المر حتى وصَلت إلى حيث يَنحني المر ويَنفتِح على أشجار جار الماء، ومن هناك رأت كلَّ مَن بقيَ من القبيلة في المِنطقة المفتوحة، مُتناثِرين مثل أوراق الشجر الميتة قبل هبوب العاصفة، عائدين إلى أعلى الهضْبة. كان أوج-لومي يُطارد «جلد القط» بشراسة.

إلا أن «جلد القط» كان سريعًا في العدْو وهرَب منه، وكذلك فعل الفتى «فاو-هاو» عندما التفَت أوج-لومي له، ولاحق أوج-لومي «فاو-هاو» إلى ما وراء الهضْبة قبل أن يُقلِع عن ملاحقته. لقد كان غضب المعركة يُسيطِر عليه الآن، وكانت قطعة الخشب المغروزة في كتِفه تُؤلمه مثل الرمح. عندما رأت أنه ليس في خطر، توقَّفت عن الركض، ووقَفت تلهث، وتُشاهد الأجساد البعيدة النَّشِطة وهي تعدو إلى أعلى، وتَختفي واحدًا تلو الآخر أعلى الهضْبة. بعد فترة قصيرة أصبحت وحدَها مرةً أخرى؛ فقد حدث كل شيء بسرعة بالغة. ارتفع الدخَان الصادر من «النار الشقيقة» مباشرةً وبشكل ثابت من مكان المعيشة،

تمامًا كما حدث منذ عشر دقائق، عندما وقَفت السيدة العجوز هناك تُمارِس طقوس عبادة الأسد.

وبعد فترة طويلة، كما بدا الأمر، ظهر أوج-لومي مرةً أخرى على الهضْبة، وعاد إلى أودينا، منتصرًا وهو يَلتقط أنفاسه بصعوبة. كانت واقفة وشعرها يُغطي عينيها، ووجهها ساخن، وتَحمل الفأس الملطَّخة بالدماء في يدها، في المكان الذي قدَّمتها القبيلة فيه قُربانًا للأسد. صاح أوج-لومي: «فاو!» عندما رآها، ووجهُه متأجِّج من رفقتها في المعركة، ولوَّح بهراوته الجديدة، التي أصبحت حمراء اللون الآن ومُغطاة بالشعر. عندما رأت هذا الوجه المتوهِّج استراحت بعض الشيء في وقفتها المُتوتِّرة، واختلطَت دموعها بضحكاتها.

شعر أوج-لومي بألم غريب مُفاجئ غير مفهوم عند رؤية دموعها، لكنه لم يفعل إلا أن صاح: «فاو!» بصوتٍ أعلى، ولوَّح بفأسه شرقًا وغربًا. دعاها لأن تتبعه، واستدار عائدًا إلى مكان المعيشة، يَمشي بخطوات واسعة وسريعة، والهراوة تَتأرجَح في يده، كما لو أنه لم يَترك القبيلة قط؛ فتوقَّفت هي عن النحيب وتبعتْه كما ينبغي للمرأة أن تفعل.

هكذا عاد أوج-لومي وأودينا إلى مكان المعيشة الذي كانا قد هرَبا منه منذ عدة أيام من وجه أويا، وعند مكان المعيشة كان ثمَّة غزال مُلقًى أُكل نصفه، تمامًا كما كان يَحدث قبل أن يُصبح أوج-لومي رجلًا أو أودينا امرأة. وعليه جلس أوج-لومي ليَأكل، وجلسَت أودينا بجواره كأنها رجل، وراقَبهما بقية أفراد القبيلة من أماكن اختباءٍ آمنة. وبعد فترة عادت إحدى الفتيات الأكبر سنًّا مرعوبة تَحمل الصغيرة «سي» في ذراعَيها، ونادت عليهما أودينا بأسمائهما، ودعَتْهما إلى الطعام. إلا أن الفتاة الأكبر سنًّا كانت خائفة ولم تأتِ، رغم أن «سي» كافحت حتى تأتيَ إلى أودينا. بعد هذا، عندما انتهى أوج-لومي من تناوُل الطعام، جلس يَغلبه النعاس حتى نام في النهاية، فخرَج الآخرون ببطء من أماكن اختبائهم واقتربوا. وعندما استيقظ أوج-لومي، رغم أنه لم يرَ أي رجل، بدا كأنه لم يَترك القبيلة قط.

الآن ثمَّة شيء غريب لكنه حقيقي؛ فطوال هذا العراك نسي أوج-لومي إصابة ساقه، ولم يكن فيه عرَج، وبعدما حصل على الراحة، انظر! عاد رجلًا أعرج مرةً أخرى، وبقيَ هكذا حتى نهاية حياته.

هرب «جلد القط» والرجل الثاني ذو الشعر الأحمر و«فاو-هاو»، الذي كان يَقطع الحجر الصوَّان بمهارة، كما كان يفعل والده من قبله، من وجه أوج-لومي، ولم يكن أحدٌ يَعرف أين يختبئون. لكن بعد يومَين عادوا، واختبئوا بين السراخس تحت أشجار

الكَستَناء، بعيدًا بمسافة جيدة عن الهضْبة، وراقبوا. كان غضب أوج-لومي قد ذهب؛ فقد تحرَّك ليَنقضَّ عليهم لكنه لم يفعل، وعند غروب الشمس ذهبوا بعيدًا. عثَروا في هذا اليوم أيضًا على السيدة العجوز بين السراخس؛ حيث عثَر عليها أوج-لومي عندما كان يُلاحق «فاو-هاو». كانت ميتةً، وأكثر بشاعة من أيِّ وقتٍ مضى، لكن جسمها كان كاملًا؛ فقد تذوَّقت بناتُ آوى والنسور لحمَها وتركوها؛ كانت امرأةً عجيبة كما كانت دائمًا.

في اليوم التالي جاء الرجال الثلاثة مرةً أخرى واستقرُّوا في مكان أقرب، واصطاد «فاو-هاو» أرنبَين، بينما اصطاد الرجل ذو الشعر الأحمر حمامةً مطوَّقة، ووقف أوج-لومي أمام نسائهم وسخر منهم.

في اليوم التالي جلسوا في مكان أقرب، دون حجارة أو عِصي، ومعهم القرابين نفسها، وكان «جلد القط» يَحمل سمكةَ سلمون مرقَّطة. كان من النادر في تلك الأيام أن يصطادَ البشر الأسماك، لكن «جلد القط» كان يقف ساكنًا في الماء لساعات ويَلتقطها بيده. وفي اليوم الرابع سمح أوج-لومي لهؤلاء الثلاثة بأن يأتوا إلى مكان المعيشة في سلام، بالطعام الذي يَحملونه معهم، وأكل أوج-لومي سمك السلمون المرقَّط. منذ ذلك الحين، ومع تعاقُب الشهور، كان أوج-لومي هو الزعيم، ويَفرض إرادته في سلام، وعندما حان الوقت قُتل أوج-لومي أيضًا وافتُرِس تمامًا مثلما قُتل أويا.